

ابن بطوطة

أمير الرحالة

د. عبد الهادي الشاذلي

عبد



تتبع الرحالة

مشاهير الكستاب المصري

للناشئة والشباب

الدار المصرية اللبنانية

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت - ص. ب. 2022 برقيا دار شادو - القاهرة - ت : 3923525 - 3936743 فاكس : 3909618

رقم الإيداع : 2001 / 18625
الترقيم الدولي : 7 - 721 - 270 - 977
الطبعة الأولى : شوال 1422 هـ - يناير 2002 م

جمع وطبع : عربية للطباعة والنشر
تليفون : 3251043 - 3256098
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

ابن بطوطة

أمير الرحالة

د. عبد الهادي التازي

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه السلسلة

هذه السلسلة تقدم كبار الكتاب والمفكرين - قديمًا وحديثًا - في كل بلدان الأمة العربية . . للناشئين والشباب . على اعتبار أن في حياة كل أمة لحظات فاصلة ، وكُتَّابًا هم ضمير شعوبها . ومن هؤلاء تتحدد معالم عظمة الأمة في اللحظات الفاصلة من تاريخها .

وهذا هو الدافع الحقيقي وراء إصدار هذه السلسلة . . أن تحتفى بالكتاب والمفكرين الخالدين من أبناء الأمة العربية ، مؤكدة أننا نمتلك القدرة على البقاء بما نملك من قوة معنوية هائلة متمثلة في مواقف وأعمال هؤلاء الكتاب والمفكرين .

ولا يعنى احتفاؤنا بهؤلاء العظماء من أبناء الأمة العربية أننا نسترجع الحديث عنهم في حكايات وحواديت ساذجة . . فهذا مالم نقصده ، إن هدف هذه السلسلة هو أن نقدم للناشئين والشباب العظمة الإنسانية ممثلة في هؤلاء الكتاب والمفكرين العرب . فنضرب لهم الأمثال من خلال دراسة حياتهم وأعمالهم ومواقفهم ، عسى أن يترسموا خطاهم في الطريق القويم بما يتحدد أمامهم من معالم ، وما يتضح لهم من دروس .

وغلى هذا فالسلسلة تحرص على أمرين :

١ - أن تتوخى فى سيرة المحتفى به مشوار العظمة وكيف كانت . بمعنى أن تقدم هذه الشعلة المقدسة فى يقين صاحبها ، والجهود المضنية التى بذلها من أجل ذلك . وعندما يتحقق لنا ذلك من خلال الدرس والبحث ؛ فإننا نضع أمام الأجيال قيمة الجهد الإنسانى الجاد ، وكيف تكون نتيجته . . . وتلك غاية فى حد ذاتها . فأحياناً يرى الناس بريق العظمة دون الوقوف عند الأسباب التى صنعت هذه العظمة !

٢ - أن تتوخى هذه السلسلة فى سيرة الكاتب أو المفكر الذى تتناوله استدعاء شريحة بكاملها من تاريخنا الحضارى بتفاعلاتها الاجتماعية والفكرية والسياسية ، تتأملها بالرصد والدراسة والتحليل المبسط ، والأسلوب السهل الممتنع . وتلك غاية أخرى تمكن الأجيال الجديدة من الوقوف على مسار حركة الفكر وتطوره فى أمتنا العربية ، خاصة ونحن فى حاجة إلى تأصيل هذا الفكر الذى انتصر فى يوم من الأيام . . . لنستأنس به فى خضم التحديات التى تواجهنا فى عالم اليوم ، والتى تحتم علينا أن نسلح بالعلم والمعرفة .

هذا ما نرجوه ونأمله من إصدار هذه السلسلة . والله الموفق .

« الناشر »

مقدمة

لقد كان لزامًا علىَّ أن أستجيب لرغبة « الدار المصرية اللبنانية » بالقاهرة في أن أقوم بتقديم هذا الرَّحالة المغربى الكبير إلى الشباب والناشئين ، ولاسيما أنها - أى الدار - كانت تهدف إلى إنارة الطريق أمام الشباب الذى يظل ذخيرتنا للمستقبل . ولقد اعتبرت ذلك الاهتمام من الدار تطلعًا إلى غد أفضل ، وهو بالتالى يُعَبِّرُ عن حضارة ، ويترجم عن رغبة شريفة تراود رجال الفكر منّا ، ممن أصبحوا يشعرون بضرورة ربط الشباب بهاضمه ؛ وشدّه إلى الرجال الأفذاذ الذين صنعوا ذلك الماضى . وإننا عندما نهتم بمثل أولئك الرجال فإننا لا نقصد إلى تشريح جثث هامة فارقت الحياة منذ زمن بعيد ، ولكن القصد من ذلك هو الاطلاع على أحوالهم ، والوقوف أمام أعمالهم للتأسّى بهم ، والافتداء بأساليبهم فى تطلعهم للمعرفة ، ومغامراتهم من أجل الوصول إلى الحقيقة ، بل وفى تفانيهم من أجل أداء رسالتهم ، برغم ما كان يحيط بهم من مصاعب ومتاعب وظروف وصروف .

وهكذا رأيت من واجبى - كما قلت - أن أقدم إلى أبنائنا وبناتنا من الأجيال الشابة هذا الرجل العظيم الذى وضع خريطة للعالم الإسلامى فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، وخاصة أن هذا القرن كان قرن ركود بالنسبة للتأليف المبدع .

هذا الرجل يحمل اسم «ابن بَطُوطَة» . وأسرة «ابن بطوطة» هي أسرة علم وقضاء . . وكانت تعيش في شمال المغرب الأقصى في «طنجة» بالذات ، كما يوجد بعض أفرادها في أندلس الأمس . وقد انتسبوا جميعًا إلى جَدَّة لهم فاضلة كانت تتمتع بالذكر الحسن والصيت الطيب ، وكان اسمها أصلاً «فاطمة» ، وبما أن هذا الاسم - «فاطمة» - اسم عزيز على المسلمين مشرقاً ومغرباً ، فقد تفننوا في النطق به حسبما كانوا يريدون ، فقد نطق به بعضهم «فطيمو» ، و «فاطو» ، و «بطو» ، و «فطوم» ، على نحو ما فعل الشرقيون عندما اختصروا هذا الاسم إلى «فاطم» ، وربما إلى «بَطَّة» ، التي تحولت عندنا في المغرب إلى «بَطُوطَة» .

هذا الرجل الجليل دخل التاريخ من باب رحلته العظيمة التي أصبحت مرجعاً مهماً للجغرافيين والمؤرخين وعلماء الأنثروبولوجيا ، والمهتمين بالحياة اللغوية والاقتصادية والدينية والسياسية . ولقد أصبحت الرحلة اليوم بعد دراستها واستيعابها وتتبع مضامينها وشخصياتها الإسلامية ، إلى جانب طول فترتها التي امتدت إلى ما يقرب من ثلاثين سنة ، واتساع رقعة مساحتها التي تجاوزت إفريقيا إلى آسيا وأوروبا ، وتنوع معلوماتها ومصادقية أخبارها ، أقول : أصبحت نتيجة لكل ذلك تُنعت بأنها أهم وأعظم رحلة في تاريخ البشرية جمعاء . ومن ثَمَّ لفتت أنظار أوروبا قبل قرن ونصف إلى مختلف اللغات : إلى الفرنسية ، والإنجليزية ، والألمانية ، والبرتغالية ، والإسبانية ، والتركية ، والهندية ، إلى آخر هذه القائمة الطويلة من لغات تلك الدول التي وجدت في الرحلة ما يكمل تاريخها ، ويتحدث عن مواقعها .

لقد نُعتَ هذا الرَّحَّالة في زمن مضى ، من قِبَل الذين خالطوه ، وفي مقدمتهم «ابن جُزَيّ» ، نعتوه بأنه «رحالة العرب والعجم» ، كما نعتوه في

عصرنا اليوم - وخاصة من طرف الذين تعمقوا في بحثه ودراسته في أوروبا وأمريكا - بأنه « أمير الرحالة » .

واللافت للنظر في هذا الرجل العبقري أنه لم يكن مجرد رحالة يقص مشاهداته للآخرين . ولكنه كان هو نفسه الذي يكتب مذكراته ، ويضبط ألفاظها ، حيث رأيناه يأسف أحيانا ويتحسر لضيق جزازات منها . . ولا عجب في ذلك ، فلقد كان « ابن بطوطة » عالما مارس مهنة القضاء وهو في مقتبل عمره وهو بديار الهند وجزر مالديف . كما أنه كان شاعرا نظم الشعر ، وقرأ الحديث الشريف وفسره . . ومن أجل كل ذلك ، فإننا أمام شخصية واسعة المعرفة ، عميقة الغور ، رشحتها صفاتها ومزاياها لكي يكون ضمن أعضاء المجلس العلمي الذي أنشأه في مدينة « فاس » « أبو عنان » ، السلطان المعروف ، والذي كان يضم عليه القوم وكبارهم في بلاد المغرب العربي في العصر الوسيط .

د. عبد الهادي التازي

حياة ابن بطوطة

سيكفينا هذا الرجل أمر التعريف بنفسه من خلال ما حكاه هو عن سيرته الذاتية ، وهكذا فإننا لا نجد عنه شيئاً سوى ما ورد عز وجل (لسان الدين ابن الخطيب) (ت ٧٧٦ هـ = ١٣٧٤ - ١٣٧٥ م) في كتابه «الإحاطة في أخبار غرناطة» من معلوماتٍ جدّ محدودة ، على خلاف صنيعة مع «ابن جبير» الذي ينتمى لبلدته ، والذي خصص له «لسانُ الدين» عشر صفحات كاملة !! وسوى ما ورد عن «ابن خلدون» (ت ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ - ١٤٠٦ م) في مقدمته ، وما ورد عن «ابن حجر» (ت ٨٥٢ هـ = ١٤٤٨ م) في (الدرر الكامنة) من معلوماتٍ أضافت بعض العناصر المفيدة على نحو ما قرأناه عن «التمجروتي» (ت ٩٩٧ هـ = ١٥٨٩ م) في (النفحة المسكية) ، «والمقري» (ت ١٠٤١ هـ = ١٦٣٢ م) في (نفع الطيب) .

لكن ما دوّنه في رحلته كان كافياً وحده ليعطى فكرةً مدققة عن الرجل من نشأته بطنجة إلى أن استقبله بفاس السلطان «أبو عنان» ، وإلى أن صحب ركبته وهو عائد من مراكش يحتمل شلو أبيه . . . فكرة مدققة عن صفاته ، وعن شخصيته ، وعن إباطه ، وعن حالته الاجتماعية . وتبقى بعد هذا نحو ثلاث عشرة سنةً من حياة الرجل ظلت تفاصيلها غائبةً عنا لم نعرف عنها شيئاً ، عن أهله وعن نسله ، سوى أنه يزاول القضاء في إقليم تامسنا ،

الذى يُعَدُّ من أوسع وأغنى الأقاليم المغربية في مملكة فاس . . حيث قد خفت صوته باختفاء وليِّ نعمته السلطان «أبى عنان» .

و«ابن بطوطة» هو : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن يوسف اللواتى الطنجى ، الملقب فى المشرق بـشمس الدين ، والمكنى عندى بأبى أحمد ، لوجود ولد له يحمل هذا الاسم . . . ومعلوم أن (لواتة) قبيلة واسعة الانتشار فى مصر ، يؤكد «المقريزى» أنها عربية .

وُلِدَ بطنجة يوم الاثنين ١٧ من رجب سنة ٧٠٣ هـ = ٢٤ من فبراير سنة ١٣٠٤ م ، ويبدو أن الأسرة تنسب إلى سيدة كانت تحمل اسم «فاطمة» - وهناك عادةٌ معروفة من قديم تنسب الناس إلى أمهاتهم - ومن ثمَّ تتحول فاطمة فى المشرق - تَدَلُّلاً - إلى بطة ، ونحن نعرف عن «ابن بطة العُكْبَرى» (ت ٣٨٧ هـ) ، وتسمى بطة فى المغرب بطوطة ، كسفودة ، على ما فى «تاج العروس» لـ «الزبيدي» (فصل الباء من باب الطاء) .

وبيت «ابن بطوطة» معروف على أنه بيت علم وقضاء . . ونعرف أن «طنجة» نفسها كانت مرفأً دولياً مهماً يتوفر على كلِّ مقومات الحضارة . وقد عرفنا عن استقبالها للشعراء ، أمثال «أبى الحسن الحُصْرِى» ، صاحب القصيدة التى مطلعها : «يا ليل الصَّبْبُ مَتَّى غَدُهُ» ، كما عرفنا عن «ابن سمحون اللواتى الطنجى» الذى رحل إلى المشرق وعاد لطنجة ومات بها ، وقد وقفنا فى البرتغال على نص ملكية لبعض مخطوطات «قضاة قرطبة» لـ «الخبشنى» ، وهو هكذا : «ملكه محمد بن محمد بن عبد الرحمن اللواتى ، الشهير فى طنجة بابن بطوطة» . وسنقرأ حديث «ابن بطوطة» ، وهو

في رُندة ، عن ابن عمه «أبي القاسم محمد بن يحيى» قاضى المدينة . . كما
نعرف عن أسرة «البطوطى» التى وضع أحد أفرادها بفاس قطعة
أسطراب فائقة الدقة .

وبعد عودة «ابن بطوطة» إلى المغرب ، وبعد أن حَدَّثَ الناسَ برحلته ،
تَنَاجَى بعضُ معاصريه بتكذيبه ! وبعد أن أصبح من جلساء السلطان
«أبى عنان» ، أصدر السلطان أمراً لكاتبه «ابن جُزَى» بتدوين رحلة «ابن
بطُّوطَة» ، قبل أن يتقلد هذا الأخير منصب قاضى إقليم «تامسنا» .

وقد وجدنا فى (نفاضة الحِراب) لـ «لسان الدين بن الخطيب» رسالةً
موجَّهة من هذا إلى القاضى «ابن بطوطة» ، وكان «ابن الخطيب» قرَّرَ عندما
التجأ إلى المغرب (فى عام ٧٠٦ هـ = ١٣٥٩ م) أن يستثمر أمواله فى منطقة
نفوذ «ابن بطوطة» ، وكانت «تامسنا» تابعة لمملكة فاس - على ما يقوله
«الحسن بن الوزان» .

وإذا كان مترجموه أهملوا الحديث عن ظروف وفاته ، فإن الحافظ «ابن
حجر» سالف الذكر فى (الدرر الكامنة) يفيد أن «ابن بطوطة» بقى إلى سنة
سبعين ، وأدركته وفاته وهو متولٍ للقضاء ، يعنى حتى عهد السلطان
«عبد العزيز بن أبى الحسن» أخى السلطان «أبى عنان» ، مما يعنى أنَّ أجله
أدركه بتامسنا ، التى كانت عاصمتها آنذاك «أنفا» ، وليس بفاس ولا
بطنجة . والله در مولانا «جلال الدين الرومى» (ت ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م)
عندما يقول : «حينما نموت لا تبحثوا عن قبورنا فى التُّراب ، ولكن ابحثوا
عنا فى قلوب الناس» .

لقد كان رَحْلُهُ دائماً على استعداد ، وهو لا يفتأ متنقلاً ، باحثاً عمّا

يضمن له الزاد في الحِلِّ والترحال . . . وقد كان يصدق عليه قول «ابن رُزَيْق
البغدادى» في قصيدته :

مَا آبَ مِنْ سَفَرٍ إِلَّا وَأَزْعَجَهُ
رَأَى إِلَى سَفَرٍ بِالْعِزْمِ يَجْمَعُهُ
كَأَنَّمَا هُوَ مِنْ حِلٍّ وَمَرْتَحِلٍ
مَوْكَلٌ بِقَضَاءِ اللَّهِ يَذْرَعُهُ !
إِذَا الزَّمَانُ أَرَاهُ بِالرَّحِيلِ غَنِى
وَلَوْ إِلَى السَّنَدِ أَضْحَى وَهُوَ يُزْمَعُهُ !!

لقد قام «ابن بطوطة» برحلاته العديدة التى كان يتعرض فيها أحياناً
لسائر أنواع الامتحان ، كما تعرض للخطر فى عددٍ من الحالات ، حتى عندما
قام بزيارة الأندلس وبلاد السودان ، لكنه نجا من جميع تلك الأهوال ،
فكان لسان حاله ينشد قول «الشرىف الإدريسى» :

دَعْنِي أَجُلُّ مَا بَدَتْ لِي . . . سَفِينَةٌ أَوْ مَطِيَّةٌ
لَا بَدَّ يَقْطَعُ سَيْرِي أُمْنِيَّةٌ أَوْ مَنِيَّةٌ !!

إن الذين يسمحون لأنفسهم بتخجيل «ابن بطوطة» ، والادعاء بأنه كان
محدودَ الثقافة ، هم فى الحقيقة بعيدون عن الحقيقة . . . ولعل بعضهم
ضَلَّلَ بما قرأه عن تكليف السلطان «أبى عنان» للكاتب «ابن جُزَى»
بترتيب الرحلة ، حيث وجد فى ذلك ما يعبر - ربّما - عن «عجز» ابن بطوطة
عن القيام بالمهمة . . . ! وهذا خطأ بَيِّن ، تكشف لنا عنه أولاً الصفة التى
رَشَّحت «ابن جُزَى» للقيام بهذا العمل ، والتى أشار إليها «المقبرى» فى

(النفح) بأنه - أي «ابن جُزَيّ» - «إن كتب أَرَبَى على «ابن مقلّة» بخطّه . . . » ، وثانيًا : ما أضفاه «ابن جُزَيّ» نفسه في المقدمة على «ابن بطوطة» من كل الأوصاف التي تؤكد عن عُُمق معارف الرحالة ، فهو «الشيخ» ، وهو الفقيه ، وهو الثقة ، وهو الصدوق ، وهو الذي باحثَ فِرَقَ الأمم ، وسَبَرَ سِيرَ العرب والعجم ، ولم أتعرض - كما يقول «ابن جُزَيّ» - لبحثٍ عن حقيقة ما قال ، لأنه سلك في إسناد صحاحها أقوم المسالك . . . !» .

ونريد أن نقول ، ونحن نقف إلى جانب من يقتنعون بالمركز العلمي المرموق للرحالة المغربي ، نقول : إن القرار الذي اتخذته السلطان «أبو عنان» بالإعلان عن مصداقية الرحلة وأهميتها لم يكن قرارًا ارتجاليًا أو عاطفيًا ، ولكنه كان وليد أخذ رأي أعضاء المجلس العلمي ، الذي اعتاد السلطان أن يركن إليه كل مطلع شمس . . ذلك المجلس الذي كان بمثابة أكاديمية حقيقية يلجأ إليها العاهل عند الحاجة ، وقد قرأنا فيما سجله الكاتب «ابن جُزَيّ» في مقدمة الرحلة أنه : «لا تقع في مجلس أبي عنان مسألة علمية في أي علم كان ، إلا حل مشكلها ، وباحث في دقائقها ، واستخرج غوامضها ، واستدرك على علماء مجلسه ما فاته من مغلقاتها . . فكانت مجالسه لا تخلو من مباحثات ومناظرات» .

وقد ذكر العلامة «أبو زيد عبد الرحمن الجاديري» (ت ٩٣٨هـ = ١٥٣٤م) نقلًا عن الرئيس «أبي الوليد إسماعيل بن الأحمر» (ت ٨٠٧هـ = ١٤٠٥م) في شرحه لقول «البوصيري» :

لَعَلَّ رَحْمَةَ رَبِّي حِينَ يَقْسِمُهَا ——— تَأْتِي عَلَى حَسَبِ الْعِصْيَانِ فِي الْقِسْمِ
ذكر ما يؤكد أن «ابن بطوطة» كان معدودًا في صدر أعضاء ذلك

«المجلس الأكاديمي» . وقد وقع الكلام بين يدي السلطان أمير المؤمنين «أبي عنان» في مقعد ملكه من المدينة البيضاء من حضرة فاس ، بمحضر الفقهاء والعلماء والأساتذة والقضاة والشرفاء والخطباء وأصحاب العلوم . . . وأخذ الرئيس «أبو الوليد» يعددهم واحدًا واحدًا ، إلى أن قال : «وشيخنا الفقيه القاضي الخطيب الحاج ، الكثير الجولة بالشرق والمغرب وجميع البلاد ، محمد بن بطوطة الطنجي ، العارف بالتاريخ . . .» .

ومعنى هذا أن الرحالة المغربي كان معدودًا في صدر رجالات الفكر والعلم والدولة جميعًا .

وللمتبع لغضون الرحلة أن يقف بنفسه عند الخطوات الأولى للرجل ، وهو يودّع طرابلس ، عندما تقدم على سائر رفاقه وفرض نفسه على بقية أعضاء الركب .

وإن «ابن بطوطة» ، وهو لا يزال في بداية طريقه في الإسكندرية ، أخذ عن الشيخ «ياقوت العرشي» تلميذ «أبي العباس المرسى» ، فهو شاذلي بالواسطة ، وقد حصل في دمشق على نحو من ثلاث عشرة إجازة ، وفيمن أجازوه «أم عبد الله زينب بنت الكمال المقدسية» ، ولقد كان حريصًا على أن يذكر أسماء الذين أجازوه في أرض الشام ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على «انتساب» الرجل إلى بيت العلم والفقه والحديث .

ولا بد أن نستمتع إلى الانتقاد المر الذي وجهه الرحالة العالم الخطيب البصرة الذي لم يحترم قواعد النحو ، التي إنما عرفت - أي قواعد النحو - ازدهارها ورواجها بين البصرة والكوفة .

ولنتبع زيارته لبغداد حيث نجده بالمدرسة المستنصرية يحضر مجالس الإمام الشيخ «أبي حفص القزويني» ، الذي كان يتناول بالدرس مسند «الدارمي» . . . لقد كان حاضراً في مثل هذه المشاهد بذاكرته وبمحسه ، يعترض على ما يسمعه أحياناً إذا لم يقتنع ، ويصحح ما يرى أن غيره جاف في فيه الصواب .

وهو في بلاد فارس اغتتم الفرصة لاستجماع حصيلة كبرى من المعارف والاتصال بأكبر عدد من رجالات الحديث والفقهاء والتصوف . وقد كان يعرف كيف يتحجب إلى الناس ويتقرب إليهم بما أُوتِيَه — هو نفسه — من خصال العلماء ، وفضائل الفقهاء . . . وهكذا وجدناه يضيف إلى إجازاته في دمشق إجازاتٍ أخرى من بعض رجال العلم والفضل في «أصفهان» .

وأكثر من هذا ، استمعنا إليه نخبرنا عن تأليفٍ له جديد ، غير هذه الرحلة ، وهو خبر طريف ، ويتعلق الأمر بتصنيفٍ طَلَب منه أحد الملوك في آسيا الصغرى (سلطان برقي) أن يؤلفه له حول الحديث الشريف .

وما من شك في أن المرء لا يجرؤ على حَمْل القلم للتدوين في موضوع كهذا دون أن يكون متوفراً على زادٍ من العلم كبير .

وقد قرأنا بعضاً من قصيدته اللامية في مدح السلطان وهو بالهند :

فلو أن فوق الشمس للمجد رتبةً لَكُنْتَ لأعلاها إماماً مؤهلاً
فأنت الإمامُ الماجدُ الأوحدُ الذي سَجَاياه حَثَمًا أن يقول ويفعلًا !

وَمِمَّا يدل على مكانة الرجل العلمية ، ما كنا نتحسسه من خلال مذكراته ، مما كان يَعْبُرُ فعلاً على أنه أطروفة من أطاريق الزمان ، وأنه

ليس إِمَّعَةً يردد ما قاله الآخرون دون تمحيص . ولأضرب مثلاً بما ينقله أحياناً عن «ابن جبير» من معلومات ، فهو عند حديثه مثلاً عن فوائد مستغلات جامع دمشق في كل سنة ، «يقدر ذلك بنحو خمسة وعشرين ألف دينار ذهبي من سكة بنى مرين» . . . وهكذا نجده يحول تقديرات «ابن جبير» البالغة خمسة عشر ألف دينار من سكة بنى عبد المؤمن . . . وقد فعل ذلك «لتيويم» المعلومات ، أى جعلها مواكبة لأيامه وعصره .

وهو إذ يستأنس بـ «ابن جبير» أيضاً ، نراه لا يردد ما أفاده سلفه من أن خطبة الجمعة تتضمن الدعاء للخليفة . وخلافاً لذلك نجده يتحدث عن الدعاء لملك مصر ، لأنَّ اليوم غير الأُمس ، والحكام الحاليين ليسوا هم الحكام السابقين !!

وإذا كان «ابن الخطيب» فى (الإحاطة) نَسَبَ إليه المعرفة بالطب ، فإنه مُصِيب فى ذلك ، نظراً لما احتوته الرحلة من دلالات وشهادات . . . و«ابن بطوطة» هو الذى لَاحَظَ أَنَّ أهل الهند لا يجعلون بيت المال عاصباً عندما تستكمل حصص الوارثين ، على عكس ما يوجد عند المالكية الذين يعتبرون بيت المال عاصباً عند فقدان الوارث ، وهو ما كان يعتمد به المغرب إلى عهد قريب .

وحديث «ابن بطوطة» عن «التعزير»^(١) عند الشافعية ، وأنه لا يتجاوز الحد . فى حين نجد أن التعزير عند المالكية غير محدد ، وأن للإمام أن يجتهد فيه حسبما يراه ولو تجاوز الحد .

(١) التَّعْزِيرُ : اللَّوْمُ والتأديب بما دون الحدِّ ، كتأديب مَنْ شَتَمَ بغير قذف .

وقد رأيناه بين الفينة والأخرى يتحدث عن أن هذا الحكم يجرى على مذهب الشافعية ، وذلك يجرى على مذهب الإمام «مالك» ، الأمر الذى يجعل رحلته أيضًا مصدرًا من مصادر الفقه الإسلامى . وقد سمعناه يقول - وقد عرضت عليه وظيفة سياسية مهمة : « إن القضاء والمشيخة شغله وشغل آبائه . . . » . وقد تحدث فعلاً عن فقيه جليل ، هو «أبو الحسن على الأنجرى» ، الذى كان يتردد على والد «ابن بطوطة» بطنجة ، والتي عرفت مجالس أمثال الشيخ «أبى سعيد» .

وما بالك بسائح يلقى مكانة رفيعة عند الحدود المصرية ، ويستضيفه «أستاذ دار» الذى يُعهد إليه عادة برّصُدِ عليّة القوم وأداء فروض الاحترام لهم ؟!

وما بالك بفقيه لم يُتردد فى استنكار ركوب الشيخ «هود» على محفة تحملها أكتاف فتيانهم الحيوانات عِوضاً أن يركب متون الخيل التى كانت تمشى مع الموكب مجنوبة ؟!

ولقد كانت آخر وظيفة له - كما قلنا - أن كان قاضياً فى «أنفا» عاصمة «تامسنا» التى احتضنت عدداً كبيراً من رجال العلم والمعرفة ممّن ترجمت لهم كتب التاريخ ، من أمثال «أبى الحسن بن الرقاص» الذى كان يُقرئ بمدرسة «أنفا» التى بناها السلطان «أبو عنان» بالجامع الأعظم .

وإذا كان «ابن بطوطة» إنما اشتهر بالرحلة التى توجد بين أيدينا ، فإن صاحب كتاب (دليل مؤرخ المغرب الأقصى) يذكر أن لابن بطوطة تأليفاً آخر يحمل اسم (الوسيط فى أخبار من حلّ تِمنطيط) ، تكلم فيه على رجال المدينة المذكورة التى تقع فى إقليم «توات» ، وكانت أهلةً بالعلم فى

القرن السادس ، والقرن السابع الهجرى ، ويقع التأليف فى مجلد ضخيم ، على ما أخبره به بعض علماء الإقليم .

وقد كان مما لفت النظر فى الرحلة ؛ أنَّ «ابن بطوطة» - بالرغم مما تقلب فيه من وظائف ، وما مرَّ به من ظروف - لم ينسَ المغرب ، الذى ظل أمام مخيلته وبين سمعه وبصره .

وحتى نعرف درجة الحسّ الوطنى للرجل ؛ لا بد أن نلاحظ تصيّد الفرصة لذكر المغرب ، فهو يفيدنا أن المغاربة شاركوا ضد هجوم القرامطة على الكعبة ، وهى الحقيقة التى نجد لها صدق فى المصادر القديمة للتاريخ الدولى للمغرب .

ولم ينس أن يقارن بين «الصقورة» فى المغرب وبين «سيريدار» فى فارس . . . ولم ينس أن يقارن بين نظام «الفيالات» فى الصين ومثيلاتها فى «سجلهاسة» ، بل وبين قطع الأسطول والآجفان بالمغرب وعددها فى الصين . . . سواء منها الغزويّة أو السفريّة ، أو الحربية والتجارية بالمصطلح الحديث .

ولقد علقت بمخيلته صور الأودية الكبرى بالمغرب ، فهو يقارن وادى سلاً ، بنهر مدينة إسطنبول . . . ولا يفوته أن يذكر بأنه يدّخر مذكراته التى يكتبها ليفيد بها مواطنيه بالمغرب . . . وأيضاً عند ذكر الطيور ، وعند حضور الأسماك ، وعند رؤيته للأوانى الخزفية التى تُقدّم إليه ، لا بد أن يعتزّ بالخزف الذى تصنعه الأيادى المغربية . . . وحتى فى شكل الخصومات والمرافعات نجده يقارن بين شكلها ونوعها فى بلاده الأصلية وفى الأماكن التى كان يتجول فيها .

ويُلاحظ أن الرجل كان في مستوى ما تنعم به بلاده من ذكرٍ جميل ، ولا بد أن نحضر معه ذات يوم خروجه للأسواق ليقتنى الملابس المناسبة لرحلة صيدٍ دعاه إليها السلطان ، فقد كان يريد « أن يُظهر القوة والهمة » . لقد كان حريصًا على أن يمثل بلاده أحسن تمثيل ، إذ كان عظيم الاعتزاز بهويته المغربية في البلاط الهندي ، وهو الأمر الذي لا يزال مثقفو الهند يذكرونه إلى اليوم . لقد كان يعلم أن بلاده - في ذلك العهد - كانت على وضع ممتاز ، وأحسن على كلّ حال من وضع تلك الجهات ، ولذلك فإنه كان يجيب عندما يُسأل عن أصله : بأنه يتسبب إلى بلد أصيلٍ أثيلٍ . وفي هذا الصدد لا بد أن نلفت النظر إلى نوع من المقارنات الطريفة ، والدالة على الحسّ الاقتصادي والتجاري الذي كان يتوفر عليه ، والذي يعبر عن شمولية شخصيته واكتمالها : قضية تتبّعه للأسعار ، وتتبعه للمكايل والمعايير والموازن ، وقيمة العملات ، حتى لكأنك مصحوبٌ بجريدةٍ تُطلعك على أسعار ما يجري في السوق . وهكذا لم يكن الرحالة رجلَ فقهِ وأحكامٍ وأوراق ، ولكنه رجلٌ مطلع على كل شيء .

فقد بدا مهتمًا بقضايا الصرف والمقارنة بين العملة في المغرب وغيره ، عندما كان بمصر ، والبصرة ، وتركيا ، والهند . . . وكذلك المقارنة بين الرطل بالمغرب ، والمنّ في الجهات الأخرى ، والأوقية ، والدينار المغربي ، وما تعرف عليه هناك مما سماه « التَّنْكة » . . . ولم يَفُتْهُ ، وهو يتحدث عن دُور ضَرْب السَّكَّة في الصّين ، أن يذكر دُور السَّكَّة في بلاده المغرب . . . كما أن أسعار الخيول هناك غيرها في المغرب . . . وإن أسعار الفراء في أرض الظلمة ترتفع إلى مبلغ هائل لا يتصوره شخصٌ نشأ في أرض لا ترتدى الفراء .

وقد رأيناه أحياناً يربط بين المعلومات المتعلقة بآسيا والمعلومات المتصلة بإفريقيا السوداء ومن هنا اعتُبرت الرحلة في العصر الوسيط دليلاً تجارياً للذين تهمهم الدراسات الاقتصادية على ذلك العهد على ما أشرنا إليه .

ومن الملاحظ أن الرجل كان يتأقلم بسرعة زائدة ، فهو يتعلم اللغة التي يتكلم بها القوم الذين ينزل بساحتهم وقد بدأ يفهم اللغة الفارسية قبل أن يتعلم التركية ، لأن الفارسية كانت منتشرة في المنطقة كلها ، حتّى في بلاد الصين ، ويكتب اللغتين بحروف عربية على ما كان عليه الحال

وحتى إذا لم يحسن الكلام باللسان ؛ فإن أُذُنِيهِ تلتقطان ما يصل إليهما من جُمْلٍ وكلمات ، ومن هنا وجدناه يردد بعض الكلمات التي تطرق سمعه بالفارسية والتركية .

وفي سائر الحالات ؛ فإنه لم يكن يشعر بمرْكَب نقص وهو يستعين بترجمانٍ ينقل عنه ما يريد أن يقول ، وفي هذا الصدد ساق بعض النكت التي وقعت له مع بعض التراجمة من الذين يدّعون أنهم يحسنون اللغة !

ومن تأقلمه وجدناه يتناول « التنبول »^(١) منذ وصوله إلى دمشق ، وأثناء مقامه بمكة المكرمة ، وبإفريقيا الشرقية ، وطول مقامه بالهند إن سائر الأشياء كانت بالنسبة إليه مقبولة ما دامت ترضى مَنْ يوجد حواليه ، شريطة ألاّ تخالف مبادئه .

ولم يفت «ابن بطوطة» أن يتعرف على جنسيات السفن التي كان يمتطيها

(١) التَّنْبُول : أكلة شامية ، وتسمى أيضاً : التَّبُول أو التَّبُولَة .

للقيام برحلته ، بل لم يفته أن يشيد بمن يستحق الإشادة إنصافاً وعدلاً ،
ويندد بمن كان سلوكه لا يُرتضى ، لا فرق عنده بين مسلم ونصرانى ، على
نحو ما كان يفعله الرَّحَّالَةُ «ابن جبیر» ، والرَّحَّالَةُ «أبو حامد الأندلسى
الغرناطى» . . . ولقد أخذنا فكرة عن الحركة البحرية على عهده ، كما عرفنا
عن الأساطيل التجارية التى كانت لها الهيمنة على ذلك العهد ، فقد كان
يتنقل مع السفن الجنوية والصينية واليمينية والعُمانية والقطلانية . . .

ومن الملاحظ أنه - أى «ابن بطوطة» - لم يتحدث - وهو عائد إلى المغرب -
عن السفن أو المراكب المغربية ، مع العلم أن السلطان «أبا الحسن المرينى»
كان فى تونس يتوفر على عددٍ من قطع الأسطول المغربى ، ولكنه - أى «ابن
بطوطة» - فضَّل أن يعود ، كما نعلم ، عن طريق أحد المراكب القطلانية
حتَّى لا يُخرج أحداً بمطلب . . . !

والحديث عن المراكب يسلمنا إلى الحديث عن الرياح الطيبة وتحكُّمها فى
مواعيد السفر ، وهذا موضوع من الأهمية بمكان ، وقد أصبح «ابن بطوطة»
من العارفين بالرياح وما يلقاه السائر فى الصحراء أو الراكب فى البحر من
آثارها .

وقد كوّن لديه الوضع الاجتماعى للمرأة ومركزها عند الأمم التى زارها
أفكاراً لا تخلو من إطراف وإتحاف ، وقد تحدث عن النساء المتجملات
المتعطرات فى مكة . . .

إذا قامتا تضيُّوع المسك منهما نسيم الصِّبا جاءت برياً القرنفل !
وتحدث عن عفة المرأة وشفقتها وهو فى خراسان ، كما تحدث عما تبلغه
المرأة من مكانة سامية فى بلاد الترك والتر ، حتَّى أن القرارات لا تُصبح

نافذةً إلا إذا صدرت عن أمر الخواتين إلى جانب السلاطين !! وحتى بلاد السودان والصحراء عندما تتمتع السيدة بحريتها في التعامل الشريف وعندما تتميز باستظهار القرآن في «هنور» من بلاد الهند !

إنَّ الرحلة مع «ابن بطوطة» في عالم المرأة يجعلك تشعر بأن الرجل نموذج للصراحة والبراءة معًا ، فهو رجلٌ مقروء مفتوح ، وهو يُسمَّى الأشياء بمسمياتها بدون لفٍّ ولا دوران ، فكان يعبر بذلك عن قوة شخصية عندما يحكى عمّا تخفيه مكانه . . . لم يجد أيّ حرج في الحديث عن الخصومة التي شَبَّت بينه وبين صهره لزوجته الأولى الصفاقسية . . . ولم يجد ما يمنعه لكي يقترح توقيف ركب الحاج في الجبل الأخضر حتى يحتفل بعُرسه على سيدة فاسية كانت ترافق والدها إلى مكة . . . !

ولم تكن هذه (الفاسية) هي الثانية والأخيرة في حلقات السلسلة الطويلة لزوجاته التي قد تكون بدأت من طنجة ! فقد تزوج بدمشق عند زيارته الأولى حفيدةً لمكناسي كان مقيمًا هناك ، وقد عرفنا من أسماء زوجاته الأسبويات « مباركة » و « الحور نسب » ، أما اللاتي لم نعرف عن اسمهن فعددهن كثير وكثير .

ويتأكد لدينا أن قلَّة السَّراج الذي يساعد على السَّمر هو الذي كان وراء الرحالة المغربي في البحث عمن تُعوضه عن الحديث والسراج ! وكما سنرى فإنه لم يشعر بأى خجل في المقارنة بين هذه أو تلك ، ليس فقط من حيث الأخلاق والسلوك والعِشْرَة ، ولكن من حيث إرضاء الرغبات الجنسية كذلك !

ولم ينسَ «ابن بطوطة» في كل مناسبة أن يهتم بكل ما يقوى الباءة

ويساعد على المضاجعة !! فهو يتحدث دومًا عن الوصفات الطيبة التي تقوى الظهر، ولا شك أن مثل هذه الشهادات ممّا يزيد في صدق المقولة السائرة بأن العرب يتميّزون عن غيرهم فيما يتصل بهذه الحقول !!

وفي هذا الصدد أيضًا لم يغفل «ابن بطوطة» عن التّويه بالسيدات المَهْرَتِيَّات (Les mahrattes) اللّاتى « كان لهنّ من طيب الخلوة والمعرفة بحركات الجماع ما ليس لغيرهن » . وقد شغله أمر اهتمام السلطان بالملكة «طايطوغلى» وحظوتها عنده دون سائر الخواتين ، حتى اهتدى للسرّ الذى حاول أن يصل إلى حقيقته !!

ولا شك أن هذا الحديث يتبعه الحديث عن الذّرية التى خلّفها «ابن بطوطة» فى تلك الجهات ، ومن غير أن نعتبر أن هذا ممّا يدخل فى إطار حياته الخاصة كما يقولون اليوم . فإن ما عرفناه من تلك الذرية هو اسم «أحمد» الذى تركه حيًّا بالهند عند الأمير «غياث الدّين» ، والذى قال عنه : إنه لم يعرف ما فعل الله به ! فى حينٍ تحدث فيه عن بقية أولاده بما نعرفه .

دور السلطان «أبي عنان»

ووزير «ابن ودرار» في ظهور الرحلة

عندما يذكر التاريخُ المعالم الحضارية التي شيدها السلطان «أبو عنان» (٧٥٩ هـ = ١٣٥٨ م) ابن السلطان أبي الحسن ابن السلطان أبي سعيد ابن السلطان يعقوب بن عبد الحق مؤسس دولة بني مرين ، وعندما يذكر التاريخُ مجالسَه العلمية التي كانت أشبه ما تكون بدور الحكمة بالأمس ، أو بالأكاديميات كما نسميها اليوم ، وعندما يذكر التاريخُ الأصدقاء العظيمة التي تركها «أبو عنان» على الساحة الدولية بما وقَّعه من اتفاقيات وما أبرمه من معاهدات ، وعندما تتحدث مصادر التاريخ عن أسطوله الذي كان يقوم بنفسه على بنائه . . . وعندما نذكر حِسَّه السياسي المرفف ، وحزمه في ممارسة الحكم ، وعندما نذكر هوايته الرياضية المفضلة : القنص بالصَّقر . . . عندما يذكر الناس كلُّ هذا ، فإن من واجبهم أن يذكروا إلى جانب تلك المناقب والمحامد عملاً آخر لا يقلُّ - إن لم نَقُلْ إنه ينافس - عن تلك الأعمال أو يفوقها، ذلك العمل هو الأمر الذي أصدره - وهو بفاس - بانتساخ رحلة «ابن بطوطة» وجعلها في متناول القراء ، بالرغم مما ظهر من بعض معاصري الرحالة المغربي - من أمثال «ابن خلدون» - الذين شككوا في مصداقية الرحلة ، وقصدوا الوزير «ابن ودرار» في محاولةٍ لكتف أنفاسها !

لقد تأكد أن القرار الذى اتخذه العاهل المغربى كان قراراً عظيماً ورائداً ، وكان وراء تخليد اسم «أبى عنان» بالرغم من أن حكمه لم يتجاوز عشر سنوات!! فهنا نحن اليوم نعيش مع اهتمام رجال الفكر كلهم - سواء كانوا عرباً أو عجماً - بهذه الرحلة ، التى كانت بالفعل حدثاً فريداً من نوعه . . حدثاً ربط تاريخ المغرب لأول مرة بتاريخ بقية العالم ، بما فى ذلك الجهات النائية ، وبما فى ذلك بعض الجهات التى لم تكن تدين بالإسلام . وهكذا وجدنا أن الرحلة تمثل جسراً متيناً يجسد الحوار بين الحضارات فى دول المعمورة ، سواء فى القارة الإفريقية أو الآسيوية أو الأوروبية . ومن ثمَّ كان لها بُعد دولى واسع أعطى العاهل المغربى فرصة ثمينة لكى يخلد اسمه عبر التاريخ كنصيرٍ لحرية الفكر ، وكمُنقذٍ للتراث ، ومشجع للإبداع . . . ويكفى أن نعرف أن الفكر الحديث يعتبر «ابن بطوطة» ثالث ثلاثة رفعوا اسم المغرب عالياً بعد «ابن رشد» و«ابن خلدون» ، وأنه - أى «ابن بطوطة» - أكبر رحالة فى التاريخ البشرى كله على حد قول «أندرى ميكيل» .

وقد استمعنا من الكاتب الفرنسى الأكاديمى «جان دورميسون» (J.D'ormesson) (مارس ١٩٩٥ م) أثناء حفل تكريمى حاشد ؛ إشادة كبيرة وعظيمة وعطرة بمركز «ابن بطوطة» المؤرخ والجغرافى والاجتماعى ، الذى كان ممّن « استطاعوا أن يؤثروا على » كما يقول «دورميسون» - بمفاتن إبداعهم ، الأمر الذى لم يظهر أثره فقط على ما كتبه ، ولكن ظهر فيما كنت أستوحيه مما دوّنه «ابن بطوطة» ، الذى كان فى صدر الذين أعطوا الإسلام بُعداً دولياً فيما يتصل بعظمته وتسامحه .

● ابن وُدْرار

كان من أبرز ما لفت نظرنا من سيرته أنه الوزير الحصيف الذى أنصف «ابن بطوطة» ، وأرجع «ابن خلدون» إلى صوابه فيما يتعلق بمصادقية الرحلة .

كان «أبو زيان فارس بن ميمون بن وُدْرار الحَشْمِيّ» قائدًا مرموقًا لدى السلطان «أبى الحسن» ، ومن هنا رُشِّحه للقيام بالسفارة عنه لدى الملك «الناصر محمد بن قلاوون» بمصر ، فى أعقاب استرجاع السلطان «أبى الحسن» ملكه على تلمسان وبجاية (عام ٧٣٧ هـ = ١٣٣٧ م) ، الأمر الذى ردّدت صدهاء ممالك إفريقيا على ما تؤكده كتب التاريخ .

وقد تضمنت الرسالة التى حملها «ابن وُدْرار» إلى العاهل المصرى أخبارًا جدّ هامة عن الحالة فى الغرب الإسلامى .

ثم أصبح «ابن وُدْرار» وزيرًا ملازمًا للسلطان «أبى عنان» بعد تمكنه من الحكم عَوْضَ أبيه ، فكان السلطان يعهد إليه بالمهمات الجسام ، وهكذا نجح فى عام ٧٥٧ هـ ، فى المهمة التى عهد بها إليه فى معركة «أنكاد» . . . كما نجح فى تطويق حركة قامت جنوبىّ المغرب فى عام ٧٥٤ هـ ، حيث أنشأ مدينة أسماها (القاهرة) ، أحكم بها الحصار على المتمردين هناك !

وبعد أربع سنوات ، أى فى عام ٧٥٨ هـ ، عُهد إليه بإخماد ثورة للحفصيين بتونس ، فجاءوا إليه مهطعين .

وهكذا بلغ «ابن وُدْرار» منزلةً لم يبلغها أحدٌ فى الدولة ، وهنا حصل ما يمكن أن يحصل عندما يشعر القائد ، أى قائد ، بأنه أمسى فى موقع « لا

يمكن الاستغناء عنه فيه » ، بل وبأن في استطاعته أن يصبح الرقم الواحد في الدولة ! ولم يكن السلطان «أبو عنان» من الملوك الذين تغيب عنهم «الهواجس» ، وهكذا فما لبث الوزير أن فوجئ بمداهمة بيته والإجهاز عليه والناس يحتفلون بعيد الأضحى من عام ٧٥٨هـ (أواخر نوفمبر ١٣٥٧م) .

● ابن جُزَي

وتأتى الشخصية الثالثة التى كان سبب ظهورها على الساحة حدثاً وقع على سبيل المصادفة ! ويتعلق الأمر بـ «أبى عبد الله محمد بن أبى القاسم محمد بن أحمد بن جُزَي» ، المولود بغرناطة سنة (٧٢١هـ = ١٣٢١م) .

لقد اجتمع هذا الرجل بالرحالة المغربى فى غرناطة ، وتحديدًا فى بستان «أبى القاسم بن عاصم» ، حيث جمع عددًا من وجوه العاصمة الأندلسية ، ووجدنا أن «ابن جُزَي» يعزب عن ارتياحه للاستمتاع بأخبار رحلة «ابن بطوطة» ، ولم يتردد فى الاعتراف بأنه «قيد عنه فى ذلك البستان أسماء الأعلام الذين لقيهم «ابن بطوطة» فى الرحلة ، وأنه استفاد منه فوائد عجيبة . . .» . وبهذه المناسبة سأل ابن بطوطة عن مولده ، فأخبره بأنه ولد بطنجة فى يوم الاثنين ١٧ من رجب سنة ٧٠٣هـ . ولا ننسى أن «ابن جُزَي» هذا كان على ذلك العهد فى خدمة «أبى الحجاج يوسف بن الأحمر النصرى» ملك غرناطة ، الذى كان يطرب لأدب الكاتب وفكاهته .

ولأن الله إذا أراد أمرًا هيأ له أسبابه كما يقولون ، فقد حدث أن تعرض «ابن جُزَي» لظلم لحقه من ملكه «أبى الحجاج» فى أعقاب وشاية آثمة ، ولم يتحمل «ابن جُزَي» إهانة السوط ، فالتحق بالمغرب « فى آخر عام ثلاثة وخمسين » ، حيث وجد من السلطان «أبى عنان» ما كان يرجوه . . .

وقد كان «ابن جُزَي» فى صدر الذين قالوا الشعر فى «الزاوية العظمى» التى بناها السلطان «أبو عنان» على ضفاف وادى الجواهر .

وقد شرع في تأليفِ حول تاريخ غرناطة ، وقد وقف «لسان الدين بن الخطيب» على بعض أجزائه في عام ٧٥٥ هـ (١٣٥٤ م) بمناسبة سفارته لدى السلطان «أبي عنان» .

وعندما قرّر السلطان «أبو عنان» استنساخ رحلة «ابن بطوطة» ؛ لم يجد في مجلسه أفضل من الكاتب «ابن جُزَي» صاحب الخط الرفيع البديع ، لا سيما أنه قام - على ما أسلفنا - بالخطوات الأولى وهو في غرناطة . وهكذا امتثل الأمر على ما كان به من علة لم تمهله ، وهكذا كُتب لـ «ابن جزي» أن يستمر ذكره عبر الأرجاء برغم عمره القصير الذي لم يتجاوز ستًا وثلاثين سنة .

بين «ماركو بولو» و«ابن بطوطة»

لقد اقترن الحديث عن «ماركو بولو» البندقى^(١) بالحديث عن «ابن بطوطة» الطنجى لدى كل الذين اهتموا بالرحالة ، وخاصة عند علماء الغرب

وقد كان من حقهم أن يفعلوا ، فإن الأول هو الذى قصد - قبل نحو من ستين سنة من تحرك «ابن بطوطة» - بلاد الشرق الأقصى ، وسُجِّلَت مذكراته التى كانت محل تعليق واسع . . . لكن الملاحظ أن رحلة «ابن بطوطة» اتسع فضاؤها أكثر مما كان الأمر بالنسبة لرحلة «ماركو بولو» ، علاوة على الحصيلة العلمية التى كانت تختلف من الواحد إلى الآخر .

وهكذا فإن كان «ابن بطوطة» قد حقق رحلته وحيداً ، وإذا كان محرر رحلته «ابن جُزَى» كان يقتصر على إضافات محدودة وموثقة ، فإن محرر رحلة «ماركو بولو» - «روستيشيللو RUSTICHELLO» - كان يضيف من خياله على ما لاحظته بعض المعقّبين ، وخاصة عند الحديث عن الصين . يضاف إلى كل هذا أن رحلة الأول اقتصرت على آسيا دون إفريقيا وأوروبا ، ومعنى هذا أن الجمهور الذى عرّف الرحالة المغربى كان أوسع من جمهور «ماركو بولو» .

(١) نسبة لمدينة البندقية بجمهورية إيطاليا ، وهى المعروفة أيضاً بـ «فينيسيا» .

وفي معرض اعتزاز «ابن بطوطة» بطول نَفْسِه في الرحلة ، واتساع رقعة منهاجه في التجوال ، ذكر أنه يفوق السائح المصرى «الشيخ عبد الله» الذى لم يدخل لا إلى الصين ، ولا إلى جزيرة سرنديب ، ولا المغرب ، ولا الأندلس ، ولا بلاد السودان . وأعتقد أنه لو قُدِّرَ لـ «ابن بطوطة» أن يجتمع بـ «ماركو بُولو» لَعَلَّقَ بمثل ذلك التعليق ، إذ إننا عرفنا أن الأراضى التى زارها الرحالة المغربى كانت تفوق كثيرا وكثيرا ما قطعه «ماركو بُولو» .

وقد تفوق رحالة طنجة على رحالة البندقية بشيء أهم ، وهو أنه استطاع أن يمتزج مع سكان البلاد التى وصل إليها عن طريق المصاهرات ، وعن طريق الوظائف السامية التى تقلدها ، والاتصالات التى كان يُجريها مع مختلف الأوساط ، الأمر الذى كان يُرضى فضوله وتطلعاته المتنوعة والمتجددة فى ذات الوقت . ويكفى - لكى نعرف حجم الرجلين ونعرف مع هذا مدى رصيد الجانب المعرفى لكلا العَمَلين - يكفى أن نقوم بجردٍ لعدد الأسماء الجغرافية التى وردت عند هذا وذاك ، وأن نعدّ الأعلام الشخصية التى جاءت فى مذكرات الأول والثانى . . . يكفى ذلك لنخلص إلى الإشادة بذاكرة الرحالة المغربى التى استطاعت أن تحتزن كل تلك الأسماء جغرافيًا وإنسانيًا ، وأن تحتفظ بشكلها وضبطها ومواقعها ، بالرغم من العدوان الذى وقع على مذكراته .

إن كل ذلك الاستظهار وذلك الاستيعاب كان فوق طاقة البشر حقًا ، وحتى جانب الإتحاف والإطراف فى كِلْتَا الرحلتين كان يُبرز - دون تردد - تفوق «ابن بطوطة» .

اهتمام المستشرقين بالرحلة

نال المغرب نصيباً وافراً في الدّراسات الاستشراقية ، ليس فقط لأنه غني بما يزخر به من تراث حضاريّ هائل ، وليس فقط لأنه البلد الوحيد الذي ظلّ يتمتع بكيانه كدولة طوال عصور متتابعة ، ولكن لأنّ مركزه الجغرافيّ ووضعه بين الأمم الأخرى جعل منه بلداً إفريقيّاً ، وبلداً عربيّاً وبلداً مسلماً ، وبلداً له حضورٌ قويّ في القارة الأوربية . . . ومن ثَمّة كان محلّ اهتمام من لدن الذين تشغلهم إفريقيا ، ومن يهتمون بالعالم العربيّ والعالم الإسلاميّ ، وأخيراً من الذين يولون عنايتهم للعلاقات التي شدّت أوروبّا بعالم المشرق والمغرب .

وهكذا فنحن أمام اهتمامٍ متنوّعٍ يتناول سائر الفضاءات التي ربّما لا يخطر بعضها على البال .

لقد وجد المستشرقين في كلّ ذلك الثّراث مجالاً واسعاً لنشاطهم ، لأنّه من جهةٍ يساعدهم على فهم الجهات الأخرى ، ولأنّه من جهةٍ ثانيةٍ يعطى صورةً دقيقةً عن نمط خاصّ يتميز عن الأنماط التي عرفوها في بعض الأنحاء .

وسينصبّ حديثنا هنا على موقف المستشرقين من رحلة «ابن بطوطة» . إنّ في حديثها عن القارة الإفريقية أو الآسيوية أو الأوروبية .

لقد كانت أصداء وجود رحلة مَّالـ «ابن بطوطة» تجاوزت بلاد المغرب عندما رَوَّج أخبارها «ابن خلدون» في مقدمته ، «والمجروتي» في رحلته ، وكذلك «المقرى» في كتابه (نفح الطيب) ، هذا إلى أصداء الرسالة الهامة التي وقفنا عليها ضمن الوثائق التي كان يتوفر عليها الدبلوماسى النمساوى المستعرب «دومباى DOMBAY» .

وهكذا ، فبعد كل تلك الأصداء والأخبار مِمَّا عرفنا ومما لم نعرف ، أخذ المستشرقون يبحثون عن نُسخها الأصلية ، ولكنهم لم يجدوا إلا مختصراً اكتشفه المستشرق العالم الألمانى «بوركهاردت Burckhardt» ، الذى كان أول مَنْ أثار انتباه أوروبا لهذه الرحلة فى أعقاب المهمة التى كُلف بها فى إفريقيا عام ١٨٠٩ م .

وقد حصل «سيتزن Seetzen» - وهو بالمشرق - حوالى سنة ١٨١٠ م على طائفة من المخطوطات لفائدة مكتبة كوثة (Goethe) ، كان من بينها تأليف من أربع وتسعين صفحة ، يحتوى على مختصر - كذلك - لرحلة «ابن بطوطة» .

وبعض مُضَيَّ عشر سنوات على عمل «سيتزن» ، نشر المستشرق الألمانى «كوسكارتن Kosegarten» - بمناسبة ندوة أكاديمية فى عام ١٨١٨ م - مقالةً تحتوى على نصٍّ مصحوبٍ بالترجمة لثلاث قطع من ذلك المختصر .

وهكذا كان «كوسكارتن» الباحث الأول الذى قدم إلينا بعض المقاطع من الرحلة ، الأمر الذى مكَّن أحد الجغرافيين من التعرف على مسالك السودان .

لقد نشر «كوسكارتن» ثلاث مقتطفات من ذلك المختصر : إحداها عن رحلة «ابن بطوطة» إلى إفريقيا ، والثانية عن رحلته إلى بلاد فارس ، والثالثة عن رحلة «ابن بطوطة» إلى مالديف . وإضافةً إلى هذا أعلن «كوسكارتن» عن نيته في أن يقوم بنشر سائر المختصر ، لكن مشروعه هذا لم يتم . إلا أن أحد تلامذته - «أبيتز Apetz» - قام في عام ١٨١٩ م بنشر مقتطفة رابعة من ذلك المختصر عن بلاد الفلفل والأبزار : المَلَيْبَار (Malabar) .

وقد شهدت نفس السنة - ١٨١٩ م - ظهورَ رحلةٍ في بلاد النوبة للمستشرق «بوركهارت» سالف الذكر ، وفي الملحق الذي صاحب هذه الرحلة للنوبة نجد تعليقاً يتصل بـ «ابن بطوطة» ، وقد تبين أن «بوركهارت» يمتلك مختصراً آخر أكثر ضبطاً من المختصر الذي اشتغل عليه «سيتزن» و«كوسكارتن» و«أبيتز» .

ونذكر من الآن أن «بوركهارت» أنصف الرحالة المغربي «ابن بطوطة» عندما أضفى عليه النعت بأعظم رحالةٍ يقوم بتسجيل مذكراته في العصر الوسيط ، وهي الشهادة التي نرى البروفيسور «أندري ميكيل» بعد قرن وثلاثة أرباع القرن يزكّيها ، على نحو ما كان من الكاتب الإنجليزى «أبركرومبى» ، والأكاديمى الفرنسى «جان دورميسون» .

ولم يكن ذلك المخطوطُ المختصر المكتشف - ونسخه ثلاث - من لندن «بوركهارت» غير (المتقى) الذى ألفه العالم «محمد بن فتح الله البيلُونى» ، وقد انتقل المخطوط بعد وفاة «البيلُونى» إلى مكتبة جامعة كيمبريدج . وعلى هذا المخطوط ، وتحت إشراف الجمعية التى تعنى بترجمة المكتبة الشرقية ،

اشتغل العالم المستشرق «صامويل لى Samuel lee» فترجمه إلى الإنجليزية ، وزوّده بعددٍ من التعليقات المفيدة .

وعن هذا المختصر قال «دوزى» كلمته الصادقة التى سجلها عند الحديث عن مخطوطة «ابن بطوطة» التى كان يمتلكها المؤرخ الإشبانى «دى كايانكوس De Gayangos» على ما أسلفنا .

وأحب أن أضيف هنا معلومةً أخرى ، تلك أنه إلى جانب (متقى) «البيلونى» ، وجدنا فى المشرق - وبالذات فى مصر - (متخبًا) آخر للرحلة مجهول المؤلف ، ولكنه عُرفَ بعنوان (مختصر الأزهرى) .

وبعد هذا الحديث عن هذه المختصرات للرحلة ، أنتقلُ إلى (الرحلة) فى نصّها الكامل ، وعلى ما عُرفت به بعدُ فى التاريخ المعاصر بسفريها الأول والثانى .

وهنا نلاحظ أن المستشرق البرتغالى الأب «جوزى دى سانطو أنطونيو مورا P. José de santo Antonio Moura» قام فى عام ١٧٩٧ م بترجمة السفر الأول من الرحلة الأصلية إلى البرتغالية ، ونشرته « الأكاديمية » فى لشبونة فى عام ١٨٤٠ م .

وهذه الترجمة تقوم على مخطوط كان هذا الأب اشتراه أثناء مقامه بمدينة فاس ، عندما صاحب السفارة البرتغالية - ترجمانًا - إلى بلاط العاهل المغربى السلطان «مولاي سليمان» ، فى عام ١٢١١ - ١٢١٢ هـ = ١٧٩٧ - ١٧٩٨ م قريبًا من تاريخ مقام «دومباى» بطنجة ، وكذلك تاريخ مقام «دولابورط» بها وبمدينة الصويرة .

وفى مقدمته يؤكد الأب «مورا» أنه قام بترجمة أمينة لهذا الجزء ، مضيفًا إلى

هذا أن المخطوط مكتوب بخط جميل ، ومُغْتَنَى به أكثر ما يكون الاعتناء ، بل إنه - أى الأب «مُورا» - يعتقد أنه منقول مباشرةً من النسخة التى كتبها «ابن جُزَى» بخطه .

ومما يلاحظ أن الأب «مورا» لم يبدأ الترجمة إلى البرتغالية إلا من الفقرة التى تتحدث عن خروج «ابن بطوطة» من طنجة ، لأنه - على ما قال - لم يعثر على الورقتين الأوليين لهذا السُّفر ، وفعلاً فإن المخطوط - كما وقفتُ عليه فى مكتبة الأكاديمية العلمية بلشبونة عدة مرّات - مبتور الورقات الأولى . . .

وقد كان مما لوحظ على عمل الأب «مُورا» أنه أسقط الأبيات الشعرية من حسابه ، فلم يترجمها ! بل وقد أهمل كلّ النقول عن «ابن جبير» إلخ . . . أكثر من هذا !

لقد حذف بعض المقاطع برُمَّتها ، مثلاً ما يتصل بعلماء الإسكندرية . . . وقد برّر هذا الصنيع منه بقوله : « إن اللائحة واسعة ومزعجة » . وهكذا كان عمله عند ذكر ملوك مصر وقُضاتها وعلمائها وأعيانها . . . وكان هذا فعله وهو يصف مكة والمدينة !

إنّ ما حذفه الأب «مورا» كان يوازى رُبْع السُّفر الأوّل ، علاوةً على تساهله فى ضبط المواقع الجغرافية والشخصية ، على ما لاحظته الباحثان المعروفان «رينو Reynaud» ، و«دوْزى Dozy» .

والحديث عن محاولة الأب «مورا» يجرُّنا إلى الحديث عن بقية من حاولوا ترجمة الرحلة ، وهنا لا بد من التذكير بأن هناك أجزاءً كثيرةً ومهمّةً من الرحلة الأصليّة أمست مترجمةً إلى عدة لغات . وقد كان فى أولها قطعة جيّدة تتعلق بالسُّودان ترجمها البارون «دوسلان» ، مصحوبة بعددٍ من التعاليق ، ومتبوعة

ـ وهذا مهمّ ـ بكتاب بعث به «دوسلان» إلى «رينو» حول المخطوط الأصيل للرحلة .

وقد أتى بعد هذا «إدوار دولوريى Edouard Dulaurier» فقدم إلينا في (جورنال أسياتيك) النص والترجمة مصححين بالتعاليق للقسم الخاص من الرحلة بجُزُر الأرخبيل الهندي . ثم قام كلٌّ من «ديفريميرى Defremery» و«سانكينيتى Sanguinetti» مرّات متلاحقة بترجمة أطراف واسعة من الرحلة الأصلية . وهكذا نُشر ، بادئ الأمر ، القسم الخاص برحلة «ابن بطوطة» إلى فارس وإلى آسيا الوسطى ، ثم كان الحديث عن الرحلة إلى القرم وقفجق ، ثم أيضًا الرحلة إلى آسيا الصغرى ، ثم الفصل المتعلق بالسلطان المغولى الذى كان يحكم العراقيين : عراق العرب وعراق العجم ، ويحكم كذلك خراسان ، وهو السلطان «أبو سعيد بهادور» . طبعًا كلّ هذه الأعمال كانت مصحوبة بالتعاليق التى يقتضيها الحال آن ذاك .

وفى بداية سنة ١٨٥٢م قدّم «شيربُونو Cherbonneau» أستاذ العربية بقسطنطينة ترجمة مختصرة لقسم أول من الرحلة ، إلى أن أخذ «ابن بطوطة» طريقه نحو سوريا ، علاوة على المقدمة التى حررها «ابن جُزّى» ، ولم يكن تحت يد الأستاذ «شيربُونو» غير مخطوطة واحدة حديثة العهد جدًا ، الأمر الذى ربما يفسر الأخطاء التى احتوت عليها الترجمة .

وهكذا ـ ومن خلال ما تقدم ـ أخذنا فكرة عن الصّحوة التى أعقبت المبادرة الأولى التى قام بها المستشرقون الألمان . . . لكن العمل الذى نبقى دَيْنينَ له بكل التقدير هو ذلك الذى قام به ـ فيما بين عام ١٨٥٣ وعام ١٨٥٨م ، وبتكليف من الجمعية الآسيوية ـ كلٌّ من

«ديفريميرى» و«سانكينتى» سالفى الذكر ، ذلك العمل الذى تمثّل فى نشرهما للرحلة مترجمةً بكاملها فى أربعة أجزاء ، وقد شجعهما على ذلك العمل ما كانت الخزانة الملكية بباريس تتوفر عليه من نسخ ثلاثٍ مخطوطة لرحلة «ابن بطوطة» .

وبفضل ظهور المجلّدات الأربعة للرحلة مصحوبةً بالترجمة الفرنسية ، صارت رحلة «ابن بطوطة» فى متناول العالم الغربى ؛ وفى متناول العالم العربى والإسلامى ، الذى كاد أن يجهل كلّ شىء عن رحلة «ابن بطوطة» . إن مبادرة هذين الرجلين نُبّهت - وبشكل بارز - كلّ الذين كانوا بحاجة إلى أن يعرفوا أكثر عن الجانب الجغرافى للرحلة ، وكذا عن الجانب التّاريخى والأنثروبولوجى . وإذا كان الاثنان قد أسهما بصفة جيّدة فى بعث هذا التراث المغربى الكبير من مرقدّه ، فإن هناك شخصيةً ثالثة أسدت معروفًا لا يُنسَى لذلك التراث ، ويتعلق الأمر بالأستاذ الراحل «هاميلتون أليكساندر روسكين جب H. A. R. Gibb» الذى قام بترجمة معظم الرحلة إلى اللغة الإنجليزية منذ أواخر العشرينات .

ولم يكتف «جب» بالترجمة الحرفية ، ولكنه كان يحاول أن يصل إلى أسرار المعنى ، بل أكثر من هذا قام السير «جب» بتحديد طائفةٍ من الأعلام الجغرافية ومواقعها ما أمكنه ذلك ، وقد قام إلى جانب هذا بالعمل على التعريف بعددٍ من الشخصيات التى وردت فى صُلب الكتاب ، ذاكراً فى أغلب الأحيان مصادره ومراجعته . ويصح القول بأنه لا يمكن للمهتم برحلة «ابن بطوطة» أن يستغنى عن المجهود الذى بذله هذا الرجل فى سبيل تصحيح ما قام به السابقون مما استفدنا منه بطبيعة الحال .

وقد كان «جب» نشر قبل إصدار الجزء الثالث دراسة نقدية حول رحلة «ابن بطوطة» في آسيا الصغرى وفي روسيا ، بمناسبة تكريم الأستاذ الراحل «ليفى بروفنسال» .

وما دُمنّا في ذكر «جب» ، فإننا نسجّل هنا أنه بعد وفاته اهتم أحد الباحثين بنشر الجزء الرابع من ترجمة الرحلة الإنجليزية ، ويتعلق الأمر بالأستاذ «بيكينكام Beckingham» ، الذى قام فى عام ١٩٩٤م بإصدار هذا الجزء ، واعدّا فى المقدمة - وفى بعض التعاليق - بأنّ مجلّدًا خامسًا فى طريقه إلى الظهور . . خصّصه ، فيما يبدو ، للفهارس وللجانِب الكرونولوجى والتوثيقى . . .

وقد كان فى صدر من استفاد من عمل «جب» ، المستشرق الروسى «أ.يو. كراتشكوفسكى» (ت ١٩٥١م) فى كتابه القيم (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) ، الذى ترجمه الزميل الراحل «صلاح الدين عثمان هاشم» .

لقد قال عن «ابن بطّوطة» : « إنه منافس خطير لمعاصره الأقدم منه تاريخًا «ماركو بولو» . ومن الطبيعى - كما يقول «كراتشكوفسكى» - أن «ابن بطوطة» الطنجى كان له إحساس فطرىّ ذاتى بظروف حضارة العالم الذى يصفه أكثر ممّا كان لدى «ماركو بولو» البندقى ، وأن وصف الرحالة المسلم لخط سير رحلته كان أدعى إلى الثقة ممّا عليه الحال مع معاصره المسيحى» .

وقد قام الأستاذ «روس دان Ross E. Dunn» فى كتابه باللّغة الإنجليزية (مغامرات ابن بطوطة) بنشر عرضٍ للرحلة ، ولو أنه كان يحكى

عن «ابن بطوطة» بأسلوب خاص ، ولكنه زوّد كتابه بتعاليق وبخرائط جدّ مفيدة .

وقد ظهر عالم تشيكي جليل قام بدراسة نقدية رائعة للرحلة ، خاصة ما يتصل فيها بتحديد المراحل والمواقع والمسافات ، مقرونةً بتحديد الأزمان والظروف ، ولا أعتقد أن أحداً يستطيع أن يجد من الوقت ومن الصبر ما يُمكنه من القيام ، بأناةٍ وتؤدة ، من ملاحقة «ابن بطوطة» ، وكشف هفواته ، والوقوف على فجواته ، على نحو ما قام ذلك المستشرق التشيكي ، العالم المتمكن ، الزميل «إيفان هربك Ivan Hrbek» ، الذي قرأنا له بحثاً جدّ مفيد في براغ في أوائل الستينيات ، قبل أن يتوفاه الله في عام ١٩٩٣ م .

وقد تهافت جهات أخرى ممّن تنتمى للعالم الناطق باللغة الإنجليزية على الاستفادة من الرحلة بعد ظهور الترجمة الإنجليزية ، وهكذا اتسعت دائرة المعرفة بها والاطلاع عليها أكثر فأكثر .

هذا ، وقد قرأ الناس ترجمة الرحلة - كُلُّهَا أو بَعْضَهَا - بعددٍ من اللُّغات الأخرى غير الفرنسية والإنجليزية ، فترجمها الدكتور «هانس فون مزيك Hans Von Mzik» إلى الألمانية ، وترجمها «إيفان هربك» سالف الذكر إلى اللُّغة التشيكية ، وترجمها إلى الإيطالية «جابريلي Gabriele» في عام ١٩٦١ م ، وترجمت إلى اللُّغة التُّركية على يد لجنة وزارة المعارف أواخر عهد العثمانيين في خمسة مجلدات ، وقد ترجمت إلى اللُّغة الفارسية من لَدُن الدكتور الزميل «محمد علي موحد» تحت عنوان : (سفرنامه «ابن بطوطة») ، وإلى اللُّغة السويدية أيضاً ، وقد قام بترجمتها «هيرمان المكيست Herman Almquist» ، خاصة الفصل الخاص بتحرك «ابن بطوطة» من

طنجة إلى الإسكندرية ، هذا إلى ترجمتها للغة الهندية ، واللغة الأرمنية ،
واللغة اليابانية ، واللغة الإسبانية .

وعلمتُ أثناء زيارتي لسمرقند في صيف عام ١٩٧٤ م أن جماعة من
المحققين يعكفون على مراجعة ترجمة للرحلة باللغة الروسية . وقد أهديت لي
أثناء زيارتي للصين ترجمة كاملة للرحلة باللغة الصينية في عام ١٩٨٤ م .

لقد ناهزت تلك الترجمات العشرين ، ونحن على يقين أن هناك ترجمات
أخرى لا نعرفها . وكأنَّ ترجمة واحدة للرحلة لم تكن كافية لأصحاب تلك
اللغة ، فوجدنا من بين أصحاب اللغة الواحدة من ينافس زميله في
البحث عن خفايا الرحلة ، فيقدم لنا رحلة «ابن بطوطة» باللغة
الفرنسية ، أو الإنجليزية ، أو البرتغالية ، أو الألمانية ، في بحوث وترجمات
أخرى ، بأساليب أخرى . ومن هذا ما ظهر في سنة ١٩٩٠ م عن مؤسسة
(لاديكوفيرت) "La Découverte" بباريس من تقديم وتعليق في ثلاثة
أجزاء للأستاذ «ستيفان ييرازيموس Stéphane Yerasimos» ، اعتمد فيها
أساسًا على الناشرين الفرنسيين السابقين ، وعلى أعمال السير «هاميلتون
جب» .

هذا إلى جانب العمل السابق الذي قام به في عام ١٩٦٨ م «فانسان
مونطى V. Monteil» عندما أعاد نشر الرحلة ، وزودها - بدوره - بتقديم
جيد ، وتعليقات مفيدة ، اعتمد فيها على عمل العالم التشيكي «إيفان
هربك» سالف الذكر ، هذا إلى البحوث المركزة التي عززت جانب الرحلة ،
من أمثال بحث العالم الفرنسي الأستاذ «ر. موني» وفريقه ، والأستاذ
«أ. ميكيل» ، وأمثالهما كثير .

وينبغي أن نؤكد أن معظم هذه الترجمات – إن لم نقل كلها – تُصَحَّبُ بتعليقات لا غنى عنها للقارئ ، بل أكثر من هذا فائدة أن بعض هؤلاء الأساتذة قاموا بوضع مقدمات لكل جزء من الأجزاء ، حتى يجعلوا القارئ الأجنبي عن العربية في الصورة الكاملة لفهم العالم الإسلامي وتقاليده ، ولفهم تاريخ دُولِهِ على ذلك العهد .

لاحظنا هذه المبادرة ابتداءً من الناشرين الأولين «ديفريميرى» و«سانكينيتى» ، وانتهاءً بالسَّير «هاميلتون جب» ، والأستاذ «يرازيموس» ، وأخيراً بالأستاذ «توماس ج . أبركرومبى T. J. Abercrombie» الذى قام فى عام ١٩٩١م برحلة فريدة من نوعها ، سار فيها على خُطى «ابن بطوطة» ، بتكليف من المجلة الأمريكية الذائعة الصيت (ناشيونال جيوغرافيك Na-tional Geographic) .

ونذكر إلى جانب كُلِّ ذلك العطاءِ الجَمِّ الذى قدمته إلينا الدِّراسات الغربية فيما يتصل بـ «ابن بطُّوطة» ، أننا نرى مما يثرى هذا الموضوع أن نشير إلى بعض المؤاخذات التى لنا على جانبٍ من تلك الأعمال ، بالرغم من أنها مؤاخذات جدَّ محدودة . .

هناك بعض الكلمات المغربية التى استعملها «ابن بطوطة» بحكم أنه كان يعيش معها ، وهاته الكلمات لم تجدْ عند باحثينا عناية بها للبحث عنها فى الفضاء المغربى ، فراحوا يبحثون عنها فى قواميس بعيدة عن بيئتنا !!

وأذكر على سبيل المثال كلمة «الفُقَّاع» المغربية ، التى تعنى بكل بساطة : الفُطْر أو الكمأة ، لكنَّ زُمَلَاءَنَا رَأَوْا فيها ما يوحى بنبذ الشعير ! وإلى جانب «الفقاع» نذكر كلمة مغربية أخرى : «بوقينة» ، التى

حيّرت أصدقاءنا ، فوضع بعضهم علامة استفهام عليها ، وراح بعضهم يبحث عن معنى لها من خلال معنى « القنينة » عند المشاركة ، مع أن الكلمة معروفة في شمال المغرب الذي ينتسب إليه «ابن بطوطة» ، وهو نبات قصير يكثر في المناطق الجبلية يُستعمل لعدّة أغراض . وقد حُفظ في الأمثال المغربية هناك : « غَرَسْتُهُ حَبَقَ فخرج لي بوقينة ! »

ولقد تعب الناشران في البحث عما تُترجم به كلمة « البوجات » المستعملة في المغرب بمعنى : الهودج أو المحفّة التي تُحمَلُ فيها العروس ، فراحا يبحثان عن معناها في اللّغات الآسيوية . وقد التبستُ عليهما كلمة « القرية » - كهديّة - فقرآها : القرية ، بالباء !

ونذكر إلى جانب هذا كلمة « المُقَيَّرَة » التي استعملها «ابن بطوطة» نعتاً للجُبّة عندما وقع أسيراً بأيدي الهنود ، وغدا مديناً بحريته لشابّ هندي أعطاه الرحالة المغربي جُبَّتَهُ - وكانت من نوع رفيع - فأعطاه الشاب الهندي جُبّة مُقَيَّرَة باليّة . هنا بالرغم من أن الناشرَين الاثنَين يريان أن النسخ التي يتوفّران عليها تكتب « المُقَيَّرَة » ؛ فإنهما - كما يؤكدان في التعليق - لم يترددا في أنها « المنيرة » بالنون عوض القاف ، وراحا يبحثان في الأصل الفارسي عن الكلمة ، وترجماها بالفعل بأنها آتية من النيلة الفارسية . ومع أن كلمة « مقَيَّرَة » معروفة الآن عند المغاربة بمعنى « وَسِخَة » ، كأنها مطليّة بالقار ، يقال : ثوبه مُقَيَّر ، يعنى : عليه طبقات من الأوساخ . . .

والجدير بالذكر أن المخطوطات التي نتوفر عليها - بما فيها مخطوطة كايانكوس ، والخزانة الملكية ، والخزانة العامة ، وفيها ما نعتقد أنه بخط الرحالة المغربي - كلّها وبدون استثناء ترسمها « مقَيَّرَة » على نحو ما نعرفه نحن اليوم .

وقد كان من هفوات الترجمة أنه في معرض الثناء على زوجة له طيبة المعاشرة، ذَكَرَ « أنه إذا تزوج عليها بَخَّرت ثيابه » ، فقد ترجما «تزوج عليها» بما يفيد أنه « تزوج بها » ، وقد كان من التعسّف تفرقتهم - في الترجمة - بين كلمة العشارين .

وقد كان مما أثار انتباهنا - وقد وقفنا في « مالديف » على اللوحة التي تنص على اسم المغربي الذي أدخل الإسلام إلى الجزر - أن بعض المشتغلين بـ «ابن بطوطة» ، وهو «يرازيموس» ، رأى أن يتزع تلك « البطولة » من «البربرى» ويعطيها إلى «التبريزي» - نسبة إلى مدينة تبريز - بالرغم من أنه اعتمد في الترجمة أساسًا على الناشرين الاثنين ! لكنه (أى ييرازيموس) رأى في هذه المرة أن يعتمد ليس على الاثنين ، لكن على آخر اسمه «فوربس Forbes» ، الذي اعتمد بدوره على مخطوطة كان صاحبها يجهل كلّ ما كتبه «ابن بطوطة» قبله بأربعة قرون عن إسلام جزر مالديف .

وإذا كان « ييرازيموس » فضّل أن يعطى البطولة للتبريزي ، فإن العالم التشيكي « هربك » رأى أن القصد بالبربرى هو أحد المتسبين لبلاد الصومال ، نظرًا لأنها أقرب جغرافيًا إلى مالديف ! وكأن « هربك » لم يقرأ عن اجتماع «محمد بن عمر التازي البغدادى» بالخليفة العباسى «المعتمد» (ت ٢٨٩ هـ = ٩٠٢ م) على ما نجده عند «التنوخى» في كتابه (نشوار المحاضرة) ، ولم يقرأ عن «المقدسى» في كتابه (أحسن التقاسيم) وهو يجتمع بعدد من علماء الأندلس بمكة في عام (٣٧٧ هـ = ٩٨٧ م) .

هذا إلى أنها - أى الناشرين السابقين - أحيانًا لم يترشا قليلًا لتقديم معلوماتها عن بعض المواقع الجغرافية في المغرب . وفي هذا الصدد ينبغي أن

نرجع إلى الجزء الأول من عملها (ص ٨٤) ، والجزء الرابع (ص ٣١٢) ، حيث تكررت ترجمة (الزاوية) التى أنشأها السلطان «أبو عنان» خارج فاس بـ «المدرسة البوعنانية» ، مع أن القصد إلى مُنشأة أخرى غير المدرسة ! يقول «ابن بطوطة» : إن العاهل بناها بخارج حضرته . ومعلوم أن «أبا عنان» أنشأ هذه المعلمة الكبرى كفندق لإيواء الضيوف على مقربةٍ من وادى الجواهر ، وكانت آيةً فى النقوش والرسوم المجسّدة ، هذا إلى أعلام جغرافية أخرى وقع فيها الخطأ عندهما فسرى إلى مَنْ قلّدهما . ونذكر على سبيل المثال : « ظفار الحبوضى » التى نقل الاثنان أنها « ظفار الحموض » !

ونحن نتحدث عن الأسماء الجغرافية فى الرحلة ؛ لاحظنا أن هناك عددًا من الأعلام لم تَنَلْ حظها من البحث والتنقيب ، على نحو ما كان عليه الأمر فى وادى قرة بالأندلس ، وجناتة ، ودار الطمع بالمغرب . وقد اعترضتنا بعد هذا انسياقات أخرى كان عليهما أن يتريّثا فيها ، مثل حديثهما عن الأديب أبى الفتيان « حَيُّوس » عوضًا عن «أبى حَيُّوس» الذى هو الصواب . وحديثهما عن الشاعر « شرف الدّين بن محسن » عوضًا عن الشاعر « أبى المحاسن عُنين » الذى هو الصواب . ومثّل ما ورد عن كتاب (المفهم فى شرح صحيح مسلم) للقرطبى ، هذا الكتاب سُمى عندهما انسياقًا مع إحدى المخطوطات (المعلم) الذى ألفه «المازرى» ، مع أن الصواب كما هو معلوم : (المفهم) . وقد كان مما ورد عندهما أيضًا : نسبة مدرسة هامة بالصالحية فى دمشق إلى «ابن عمر» ، مع أنها لـ «أبى عمر» ، على ما هو فى المخطوطات الموثوقة . وقد كان مما لَفَتَ نظرنا ما ورد عندهما حول العلامة «ابن الشحنة الحجار» ، فقد نقلًا معًا أنه الحجازى «عوض الحجار» . . وقد كان مما وقفنا عليه عند الناشرين المذكورين ما ورد حول

الشيخ « البجدى » بالباء ثم الجيم ، فلقد تحرف عندهما إلى « النجدى » !
هذا إلى خطأ آخر يتعلق بـ « جمال الدين أبى المحاسن يوسف المزى » ، الذى
رسم خطأ « المزنى » بالنون ، الأمر الذى سار عليه كل الذين نقلوا عن
الاثنين دون روية . . . !

وفى الأعلام الشخصية التى كانت تحتاج إلى التصحيح ؛ ما ورد
عندهما حول « روز جهان القبلى » عوض « روز بهان القبلى » الذى هو
الصحيح .

وقد كان من الأخطاء التى أثارت الانتباه ، ما ورد من حديث عن « ابن
شبرين » - بالباء - السبتي (نسبة إلى سبته المغربية) . . هذا العالم تحوّل اسمه
عندهما إلى « ابن شيرين » بالياء عوض الباء ، كما تحوّل « السبتي » إلى
« البستي » - نسبة إلى بُست - ويا بُعد ما بين سبته وبُست !!

وفى حديثهما عن « ابن بطوطة » وهو بتونس عائداً من المشرق ؛ تحوّل
عندهما اسم « زيان بن أمديون » العلوى ، وزير السلطان « أبى الحسن »
وصهره وظهيره ، إلى « ابن أمريون » بالراء عوض الدال .

وفى موضع آخر؛ تحوّل اسم « الأبلى » ، نسبة لأبلّة (AVILA) فى الأندلس ،
إلى « الأبلّى » ، نسبة إلى الأبلّة فى البصرة !

والملاحظ أن هذه الهفوات وقع فى معظمها جُلّ الذين اعتمدوا على
النسخة الفرنسية من الناشرَيْن اللَّاحِقَيْنِ على ما سنرى . . . ! وقد كان من
غريب ما وقع فيه المترجمان ؛ أن تلبس عليهما فى البداية كلمة « الصاحب »
التي كان يقصد بها « ابنُ بطوطة » : « الصاحب بن عباد » ، بكلمة
« الصاحب » التى تعنى الصديق !

لنقرأ هذه الفقرة في الرحلة تعليقاً على أن ماء مدينة البصرة غيرٌ جيّد ،
قال «ابن جُزَيّ» : « ألوان أهل البصرة مصفّرة ، حتّى ضرب بهم المثل ،
قال بعض الشعراء وقد أحضرت بين يدي «الصاحب» أترُجّة :

لله أترجُّ غداً بيننا مُعَبِّراً عن حالِ ذى عَبْثَرَةٍ
كما كسا الله ثياب الضنا أهل الهوى وساكني البَصْرَةِ ! »
الشاهد عندنا في « أحضرتُ » ، الهمزة مضبوطة عند الاثنين بالفتح ،
وقد تُرجمت هكذا :

Un poète de mes amis , à qui je présentai un citron composa ces vers:

ومن هذا المعنى نذكر التباس كلمة « السّفر » - بكسر السين وتسكين
الفاء ، بمعنى الجزء أو المجلّد - بكلمة « السّفر » بفتح السين والفاء . .
التبس ذلك على بعض التراجمة الإنجليز؛ فكان في بعض الأحيان يترجم
كلمة السّفر بـ (Journey) !!

ومع كلّ هذا؛ فإنه لا يسعنا إلا أن ننوه بالعمل الجادّ الذي قام به التراجمة
من مختلف الجنسيات من أجل بعث رحلة «ابن بطوطة» من مرقدها وجعلها
في متناول الجميع ، وبمختلف الوسائل .

والحقيقة أنّي لم أسمع في الدنيا عن رحلة نُقلت من لغتها الأصلية إلى
لسانٍ ثانٍ ، ثم تُرجمت من ذلك اللّسان الثّاني لتعود إلى لغتها الأولى بصياغةٍ
حديثّة . ولقد تحقق ذلك في رحلة «ابن بطوطة» ، التي ترجمها « غيرمُو
غوسطافينو » عن الإسبانية بأسلوبه العربيّ الذي كان يرى أنّه أكثر إثارة
وأوفى إشارة .

وقد لَدَّ لي - وأنا أزور دول القارة الأمريكية التي لم يصلها «ابن بطوطة» -
أن أبحث عمّا إذا كان له صدّي هناك ، ولشُدّ ما كان استغرابي وأنا أقف
على عشرات البحوث التي كتبها أمريكيّون ، بل وأستراليون ، عن هذه
الرّحلة العظيمة التي لن ينتهى الحديث عنها .

اهتمام العرب بالرحلة

والآن وقد ألمنا بعض الشيء بعمل المستشرقين من أجل رحلة «ابن بطوطة»، نرى من المفيد أن نخصص هذا الحيز لما قام به الزملاء العرب كذلك من جهود متنوعة مشكورة للاستفادة من الرحلة . . .

وأرى من المفيد - منذ البداية - أن أذكر بأنه بالرغم مما ظهر في المشرق من طبعات عديدة للرحلة من أواخر القرن الماضي، وبالضبط منذ سنة (١٢٨٨ هـ = ١٨٧١ م) إلى اليوم، فإن كل تلك الطبعات - وبدون استثناء - إنما كانت منقولة من الطبعة الباريسية، أي إنه لا يوجد ناشر واحد قام بمبادرة من عنده للاعتناء على مخطوطات جديدة غير التي اعتمد عليها الناشران الفرنسيان : «ديفريميرى» و«سانكييتى»، بل لم نجد واحداً من زملائنا من كلف نفسه حتى زيارة مركز المخطوطات الباريسية للاطلاع على تلك المخطوطات، للقيام ببعض المقارنات والمفارقات . . . !

ولكثير ما اعتمد الناشرون على الطبعات السائرة، وجدنا بعضهم يقتصر على اعتناء هذه «الطبعات» فيما ترسمه وتكتبه، فيقول مثلاً : بعض الطبعات ترسمه كذا، وبعضها تكتبه كذا، وكأنَّ الأصول المخطوطة مفقودة !

وفي مصر التي تعتبر - على مرّ العصور - بحقّ رائدة الفكر ، وعاصمة الكتاب العربي ، فإن الرحلة لم تشتهر فيها إلا عندما صدرت كاملة في باريس في عام (١٨٥٣ هـ = ١٨٥٨ م) ، فهنا تحركت الهمم لطبعها بمصر ، نقلاً - بالحرف - من الطبعة الفرنسية . ونقول بالحرف ونحن نقصد إلى أن الناشرين التابعين لم يبذلوا أيّ جهد حتى في تصحيح نسبة الديباجة لـ «ابن جُزَيّ» ، وليس لـ «ابن بطوطة» ، على ما ندركه من قراءة السطور الأولى للمقدمة .

وقد تمّ هذا الطبع أولاً بمطبعة «وادي النيل» بتصحيح «أبي السعود أفندي» في منتصف جمادى الثانية من سنة (١٢٨٨ هـ = أول سبتمبر ١٨٧١ م) ، على أصله المطبوع ، مع ترجمته بالفرنساوية بمدينة باريس في سنة ١٨٨٥ ميلادية - كما تقول هذه الطبعة .

وتحركت في بداية هذا القرن (١٣٢٢ هـ = ١٩٠٤ م) همّة أحد أبناء فاس ، فتطوَّع الشريف «مولاي أحمد بن عبد الكريم القادري الحسني المغربي الفاسي» بطبع الرحلة من جديد ، وكان عليه - هو الآخر - أن يعتمد على النسخة المطبوعة بمصر المعتمدة بدورها على طبعة باريس .

لقد عرفنا لـ «الشريف القادري» بعض المبادرات الماثلة عندما طبع على ذمته (كشف الأسرار عن علم الغُبار) للإمام «القلصادي» في عام (١٣١٨ هـ = ١٩٠٠ م)، وعندما طبع كذلك على ذمته (مختصر الشيخ خليل) في الفقه المالكي في عام (١٣٢٢ هـ = ١٩٠٤ م) بالمطبعة الحجرية بفاس .

ولعلّ «الشريف القادري» تعذّر عليه أن يقوم بطبع رحلة «ابن بطوطة» في

مطابع الحَجَر بفاس ، فقام بهذه المبادرة الجريئة واتَّصل بمصر التي ظهرت فيها هذه « الطبعة الثانية » للرحلة بمطبعة (التقدُّم) بشارع محمد علي بالقاهرة في يوم ١٣ من ربيع الثانى سنة ١٣٣٢هـ (١٧ من يونية ١٩٠٤م) ، ولكن مع حذف أن الأصل هو الطبعة الباريسية ، كما فعلت من قبلُ مطبعة (وادي النيل) !!

وقد ظهرت بالقاهرة طبعة ثالثة في عام ١٩٢٨م عن المطبعة الأزهرية : جزآن في مجلد واحد ، أشرف عليها ابن الشيخ «حسن الفيومي إبراهيم» ، ونعتها بـ « الأولى » !

ولم تقف الرحلة في مصر عند هذا الحد ، فقد رأت وزارة المعارف المصرية - على ما يؤكد المستشرق الروسى «كراتشكوفسكى» - أن دراسة الرحلة في المدارس مما يساعد أبناء مصر على توسيع مداركهم وإثراء معلوماتهم . وهكذا عهدت الوزارة في سنة ٣٥٢ هـ (١٩٣٣م) إلى اثنين من كبار رجال التعليم في أول هذا القرن بالاهتمام بالرحلة وإعدادها لتصبح ضمن المقررات المفروضة على طلاب المدارس الثانوية ، كما عهدت إلى الشيخ «محمد فخر الدين» بوضع خرائط لها ، فكان كتاب (مهذب رحلة ابن بطوطة) .

ونرى من المفيد هنا أن نشير إلى النقد اللاذع الذى لقيه كتاب (مهذب الرحلة) من لدن عددٍ من الباحثين ، كان منهم زميلنا الراحل ، الدكتور «حسين مؤنس» الذى يقول : « وهل هناك أدل على الجهل بقيمة رحلة «ابن بطوطة» من أن تُنسخ في صورة «مهذب» يستعمل كتاب مطالعة لتلاميذ المدارس؟ . . ولا ندري كيف يمكن أن يُهذب وصف رحلة على هذه القيمة؟ وما هى الأجزاء التى ينبغى استبعادها حتى تكون الرحلة مهذبة؟ » .

وإلى جانب هذه الطبعات المصرية ، وجدنا بيروت بدورها تُولى اهتمامها لرحلة «ابن بطوطة» . وكان أول ما لفت النظر للرحلة ، حسب علمنا ، سلسلة (الروائع) لـ «فؤاد أفرام البستاني» فى طبعتها الأولى (يونىة ١٩٢٧م) حيث توالى طبعاتها فيما بعد . وقد قدمت سلسلة (الروائع) «ابن بطوطة» عبر رحلته (تحفة النظر) فى ثلاثة كتيبات صغيرة .

ومن هنا تحركت (دار صادر) لتقدم إلينا فى عام ١٩٦٠م طبعتها الكاملة للرحلة ، ثم نافست (دار الكتاب اللبنانى) (دار صادر) ، فنشرتها كذلك فى نفس عام ١٩٦٠م .

ونرى من المهم أن ننبه هنا إلى سابقة خطيرة ، تلك أن الناشر فى (دار صادر) أقدم على حذف الكلمات المتعلقة بضبط وشكل الأسماء الجغرافية ! هذا الضبط والشكل الذى يذكره المؤتمر العالمى لتنميط الأعلام الجغرافية التابع للأمم المتحدة على أنه من مناقب رحلة «ابن بطوطة» ومزاياها !!

ومن الواضح أن صنيع (دار صادر) هذا يُعدُّ بدعةً منكراً لا تتفق وأهداف البحث الذى يعتبر أن ضبط الأسماء نوعٌ من التوثيق الذى تفرضه الأمانة العلمية . وإذا كان الأوروبيون يستغنون عن ضبط الأسماء الجغرافية والشخصية ، فلأن كتابتهم تقوم مقام الشكل الموصوف فى اللغة العربية .

هذه علاوة على حذف بعض الجمل التى رأت الدار أنها لا تليق بالأحوال الجارية اليوم ! وعلاوة على بعض التعليقات فى الهوامش ، التى تظل بعيدة عن مفاهيم الأسرة الإسلامية والبيئة المغربية .

ومن الملاحظ أن (دار الكتاب اللبنانى) سارت فى نفس اتجاه (دار صادر) ، فقد استغنت عن ضبط الأسماء الجغرافية والأعلام الشخصية

تقليدًا لزميلتها (دار صادر) . بل أكثر من هذا ، فقد قامت هذه الطبعة هي الأخرى بحذف بعض الفقرات ، بل وبعض الأشعار التي لم ترقها من الرحلة ظلمًا وعدوانًا ، على نحو ما كان قام به المستشرق البرتغالي الأب «أنطونيو مورا» سالف الذكر ، وقام به كذلك العالم الإيراني ، الدكتور «على موحد» .

لقد حُكي عن «الجاحظ» أنه صنف كتابًا وبوّبه أبوابًا ، فأخذه بعض أهل عصره فحذف منه أشياء وجعله أشلاء ، فأحضره «الجاحظ» وقال له : يا هذا ! إن المصنّف كالمصوّر ، وقد صورتُ في تصنيفي صورةً كانت لها عينان فعوّرتهما ، أعمى الله عينيك ! وكان لها أذنان فصلمتهما ، صلم الله أذنيك ! وكان لها يدان فقطعتهما ، قطع الله يديك ! حتى عدّد أعضاء الصور . . . فاعتذر إليه الرجل وقاب إلى الله من المعاودة .

وقد ظهرت بمصر في عام (١٣٨٣ هـ = ١٩٦٤ م) عن (المكتبة التجارية الكبرى) طبعة أخرى للرحلة ، وذكر على أول صفحة فيها أنها «رُوجعت وصُحّحت على عدة نسخ صحيحة ، بمعرفة لجنة من الأدباء» .

وقد أغراني هذا الإعلان ، فشددتُ الرحلة لطلب هذه الطبعة المصحّحة على عدة نسخ ومن طرف ثلثة من الأدباء الذين لم يذكر منهم اسم واحد ، لكنها كانت نسخة طبق الأصل من كل النسخ التي صدرت بمصر ، فهي تبتدئ بالخطأ المشهور الذي ينسب المقدمة لـ «ابن بطوطة» مع أنها لـ «ابن جُزَيّ» ، ثم تسير على نحو سابقاتها في أغلاطها ! والفرق الوحيد بينها وبين سابقاتها أنها تجعل الكلمات التي تشكل الأعلام الجغرافية بين هلالين ، مثلاً : بلاد (البَرة نَكَار) يقول عنها مصحّحها : (وضَبَطُها بفتح الباء

الموحدة والراء والنون والكاف وسكون الهاء) . وهذه الطبعة عبارة عن جُزأَيْن في مجلد واحد . وقد ختم المصححون « السَّفر الأول » بإيراد تذييل لـ «ابن خلدون» حول «تناجى الناس» ، وحول اتصاله - أى «ابن خلدون» - بالوزير «ابن وُدْرار» في حين ختم السَّفر الثانى بالتنويه «بالحاج مصطفى محمد ، صاحب المكتبة التجارية الكبرى ، شارع محمد على» . وقد وافق التهام أوائل شهر رجب من عام (١٣٧٧ هـ = ٢٢ يناير ١٩٥٨ م) . هذا ، وقد صدرت طبعة أخرى عن (المكتبة التجارية الكبرى) في عام (١٣٨٦ هـ = ١٩٦٧ م) .

وفي سنة (١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨ م) صدرت عن (دار التراث) في بيروت نسخة جديدة ، مزيَّتها فقط أنها تنسب المقدمة لصاحبها «ابن جُزَى» وليس لـ «ابن بطوطة» ، والباقي جارٍ على سنن الطبعات السابقة .

وقد ظهرت طبعة جديدة للرحلة في عام (١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢ م) عن (مؤسسة الرسالة) في بيروت ، رأى زميلٌ لنا عزيز أن يقوم بتقليد صنيع الناشرين في لبنان ، وهكذا حذف العبارات التى تضبط الأعلام الجغرافية ، بل وقام باجتهادٍ جديدٍ ، وهو أنه جرَّد أقوال «ابن جُزَى» من صلب الرحلة وجعلها في ذيولٍ على حِدَةٍ ، نظرًا لكون فائدتها - فى نظره - ثانوية ! وقد سلك هذا الصَّنيع أيضًا فى بعض النصوص التى وردت فى أثناء الكتاب . ومعنى كلِّ هذا أن الرحلة التى عرفها الناس أيام السلطان «أبى عنان» راحت لتُعوضها رحلةٌ أخرى بترتيباتٍ أخرى .

وقد أتعب مثلُ هذا الصنيع أصحابه ، فلم يستطيعوا الالتزام به ، ابتداءً من أول فقرة فى الرحلة عندما استهل «ابن جُزَى» مقدمته بقوله : « الحمد لله

الذى ذلل الأرض لعباده ليسلكوا فيها سُبُلًا فجاءًا . . . » إلخ . فهل لم يكن من واجب هؤلاء الزملاء - وقد قرروا فصل كلام «ابن جزى» عن الرحلة - أن يجعلوا المقدمة ذيلاً كذلك ؟ ! . هذا إلى هفوات بالغة لم يُنتبه لها ؛ مثل كلمة « التارات » فى المقدمة التى تحولت إلى « القارات » ! وكلمة « الفارسية » التى تحولت كذلك إلى « الفاسية » !

وما كان لى أن أتحدث عن هذه الهفوات التى افترضت أنها مطبعية لولا ما أدّت إليه ، حيث جاء بعد هذا أحد زملائنا من لبنان فقام باجتهادات أخرى ، وهكذا اعتمد على زميلنا الذى أشرنا إليه من غير أن يرجع إلى أصول الرحلة ، ونقل عنه منهاجه فى الاستغناء عن ضبط الأعلام ، وحذف تعليقات «ابن جُزى» من صلب الكتاب لتصبح فى الهامش . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، ولكنه تجاوزه إلى إعطاء « تفسيرات » غير صحيحة تماماً لبعض الهفوات الواقعة فى الرحلة المنقول عنها ! . مثلاً : فسّر هذا الباحث القصد من كلمة « القارات » - مع أنها « التارات » وليس القارات - بأنها إفريقيا وآسيا وأوروبا ، مضيفاً إلى هذا قوله : « إن أمريكا وأستراليا لم تكونا قد اكتشفتا بعد » ! وفسر القصد من كلمة المملكة « الفاسية » - مع أنها « المملكة الفارسية » - بأنها « مملكة مدينة فاس » !! وبدّل هذا الناشر بعض العبارات التى لم تعجبه فى الرحلة على نحو ما فعل سلفه . وأخيراً ظهر له أن يستغنى عن العناوين التى جعلها «ابن بطوطة» لكتابه ، وابتكر هو عناوين أخرى .

ومن الإنصاف أن نقدر الجهد المضنى للأستاذ «طلال حرب» فى محاولته - لأول مرة - لإعداد فهرس متنوعة ، وكنت أتمنى أن يتسع صدره لمراقبة أكثر للكُنَى والألقاب ، وللتحرى فى التعريف بالأعلام

الشخصية ، والتصدي للأخطاء المطبعية التي كانت أحياناً ضحيتها
أيضاً !!

وقد وقفنا أخيراً على طبعة للرحلة صدرت عن (دار إحياء العلوم)
ببيروت في سنة (١٤١٢ هـ = ١٩٩٢ م) ، وكانت بتقديم وتعليق الشيخ
« محمد عبد المنعم العريان » ، وقد اعتمد في عمله على ما صدر من بعض
الطبقات السابقة على ما أسلفنا .



ويبقى أخيراً أن نذكر أن رحلة « ابن بطوطة » ألهمت بعض الكُتّاب
العرب المعاصرين فنسجوا على منوالها رحلةً خيالية ابتدعوها تحت عنوان :
(رحلة مغربي إلى حضرموت) ، وحاكوها بدقة وذكاء حتى مرّت الحيلة -
بروحاً من الزمان - على بعض زملائنا ، لا سيما أن ذلك المخترع قد برع في
إضفاء حلة البرود اليهانية على البرانس المغربية !!

ومن السادة الذين تصدوا للرحلة - وهم كثير كثير - من تجنّب نشرها
حَرْفِيّاً ، وتحقيقها على الطريقة المعهودة في كتب التراث ، واكتفى
بعرضها ، أي إنه كان يحكى عن « ابن بطوطة » ، ويتحدث عنه حديث
الغائب ، وبأسلوب غير أسلوب « ابن بطوطة » .

وقد برّر بعضهم هذا الصنيع بأنّه نوع من « التعريب » ، أي نوع من
ترجمة الأسلوب القديم إلى « الأسلوب الحديث » ، وقد استأنس هذا البعض
في ذلك بصنيع الدكتور « طه حسين » في كتابه (صوت أبي العلاء) عندما
قال : « وما دام جمهور المثقفين يَعْظُمُ وَيَضْحَكُ من يوم إلى يوم ، فلا بد أن

لنرب إليهم أدبنا القديم . . . فليس كل الناس قادرًا على قراءة اللُزوميات ،
الفصول والغايات ، ورسالة الغفران وفهمها . . . وإلا انقطعت الصلة بين
الحديث والقديم ، وأصبح مكان الأدب العربى القديم من المثقفين مكان
الأدب اللاتينى من الفرنسيين والإيطاليين « . . .

ويلاحظ أن بعض الناشرين فى المشرق لم يكلّفوا أنفسهم عناء البحث عن
بعض الكلمات المغربية الواردة فى الرحلة ، فأطلقوا العنان لاجتهادهم الذى
أخطأ الصواب فى بعض الأحيان .

وسأكتفى بسرد طائفة من الألفاظ معتمدًا على القارئ فى العودة إليها :
كلمة (مِتَّيجة) ، وهى عَلم جغرافى كما هو معلوم ، وليست اسمًا لأداة من
أدوات النقل فى المغرب كما زعموا . وكلمة (القَبْرية) التى هى عبارة عن
شاهد القبر الذى يُسجل فيه اسم الميت وتاريخ وفاته ، كتبوا عوضها
(التَّبْرية) وقالوا : إنها نسبة إلى (التَّبْر) أى الذهب ، وقد تكون من
النحاس أو الحديد أو الرصاص !

وقد استشكل بعضهم كلمة (الظهير) التى تعنى فى المغرب - كما هو
معلوم - المرسوم الملكى . ولفظ (الشُّكارة) الذى يعنى فى المغرب ظرفًا
من الجلد توضع فيه النقود مثلًا ، وليس إناءً على كلِّ حال . وكلمة
(الفَرَجِية) ليست ضربًا من الأقبية ، ولكنها لباس . . وهى لفظ مغربى على
ما يؤكد «دوزى» فى كتابه (معجم الملابس) . وكلمة (أفراج) : تعنى فى
المغرب مجموعة خيام سَكْنِيّة متنقلة تكون صحبة الركب الملكى ، والكلمة
بربرية ، وقد ورد ذكرها مرارًا فى المصادر المغربية . أما عن (التهليل) فإنه
ظرف يُجعل فيه (المصحف) - وربّما (دلائل الخيرات) - كتعويذة ، وليس
القصد إلى قطعة ذهبٍ على شكل الهلال كما ظنوا . و (المجشّر) ويجمع على

مجاشر - وقد يُحَرَّف إلى (مداشر) - لا يعنى فى المغرب الحوض ، ولا المبلغ من المال ، ولكنه يعنى مجموعة سَكْنِيَّة فى البادية . هذا إلى كلمة (السَّنداس) التى تعنى فى المغرب ثقب المرحاض . وكلمة (المصرية) التى تعنى فى المغرب (البيت المنعزل) الذى يأوى إليه شباب الأسرة مثلاً ، ويكون ملحَقًا بالدار التى تسكنها العائلة . وكلمة (التَّبْرِيح) فى المغرب تعنى الإعلام العَلَنى ؛ من مثل : برَّحوا بالملك على أَنَّهُ سيقوم بِسَفَرٍ نحو جهةٍ من الجهات ، بمعنى : أعلموا به وأشهروه ، وهذا المعنى فات بعض الناشرين ، ففسَّروا التبريح بأنه الضَّرْب المبرَّح ، وهذا معنى لا صلة له بالموضوع . وكلمة (أزواج الحرث) ؛ وجد الأستاذ «كرم البستاني» أنها تحريف لكلمة (إزواح) ، وانطلق يؤوِّل ! وكلمة (القِيَّرة) يستعملها «ابن بطوطة» و«ابن خلدون» على أنها مقتبسة من الكلمة الإسبانية (الكيرة) بمعنى الحرب ، حوَّها «البستاني» إلى كلمة (الغُزاة) . . . ! و (البحائر) التى هى جمع لَبَحِيرَة ، على وزن سفينة ، جعلها جمعًا لبحرة . و (صاحب العَلَامَة) التى تعنى لقبًا حضاريًا يعنى الموظف السامى فى الدولة الذى يُعهد إليه - بعد أن تحرر الرسالة الملكية - بوضع العَلَامَة السلطانية عليها ، هذا المعنى خفى على بعضهم ، فحول العبارة إلى (صاحب العَلَامَة) !! بالرغم من أن المشرق عرف أيضًا هذه الوظيفة - على ما فى كتاب (بدائع الزهور) لـ «ابن إياس» .

ولا يفوتنى بعد هذا أن أضيف إلى ما ذكرته : أن سائر الذين اهتموا بالرحلة لم ينتبهوا إلى أن الشعر الفارسى الذى طالب أمير أمراء الصين بغنائه وترديده مرارًا حتى حفظه «ابن بطوطة» من أفواههم هو بيتٌ واحد للشيخ «سعدى» من قصيدة مشهورة ، وليس بيتين من بحر الرجز كما ظن البعض ذلك .

اهتمام الدراسات النقدية بالرحلة

لقد بقيت رحلة «ابن بطوطة» بعيدةً عن كل نقد وعن كل تعليق - عدا ما حكيناه عن «ابن الخطيب» ، و«ابن مرزوق» ، و «ابن خلدون» - حتى قبض الله لها من بعض المستشرقين من قام بمتابعتها وتعقبها . وقد ابتدأت الدراسات النقدية في الواقع منذ اليوم الذي نُشرت فيه الأطراف الأولى من الرحلة في بعض البلاد الأوروبية .

ومن أشهر من تناولها بالنقد - بعد الناشرين الفرنسيين - السير «هاميلتون جب» ، والعلامة التشيكي «إيفان هريك» ، والباحثان الفرنسيان : «فانسان مُونطى» ، و«ستيفان ييرازيموس» ، و«رُوس دان» الأستاذ بجامعة ولاية سان دييجو ، وآخرون غير هؤلاء .

وهكذا توفّرنا على دراسات نقدية أثرت رحلة «ابن بطوطة» ، وأثارت انتباه الباحثين إليها من سائر جهات المعمورة وبكل لسان .

لقد تتبّعوا تلك المذكرات من خلال عدد من المقاييس والمعايير ، مثل ضبط التواريخ التي يوردها مقارنةً بأسماء الأيام التي يذكرها : يوم الاثنين مثلاً ، وهل بالفعل يتطابق مع تاريخ اليوم السابع عشر من رجب الفرد سنة ثلاث وسبعمئة الذي ذكر تاريخاً لميلاده ؟

وهناك حديث «ابن بطوطة» عن شدة البرد في شهر قمرى (شوال مثلاً)،
في حين أن هذا الشهر كان يوافق يونية أو يولية الذى نعتاد فيه الحر .

وهم يتَقَفُون أثره وهو يجتاز بعض البلاد مثلاً ، فلا يذكر تاريخاً ليوم
ولا لشهر ولا لسنة ، وبذلك يتركنا في غموض من أمر التسلسل الزمنى .

وقد حاسبوه على ذكر بعض الأحداث في غير محلّها ، وأنه يحكى في
الرحلة السابقة ما حصل له في الرحلة اللاحقة ، على نحو ما حكاه عن
«الشريف أبى غرة» وهو في النجف ، في حين سيسمع الحكاية عنه وهو في
الهند ، وما حكاه في زيارته الأولى عن الطاعون بدمشق .

وقد حاسبوه فيما روى عن بعض الشخصيات واتّصّاله بها ، في حين كان
يستحيل عليه ذلك ! هذا إلى إهماله لذكر أسماء الحكام في بعض الجهات
التي زارها ، مع أن عاداته جرت على أن يُعطى الأولوية لزيارة المتنفّذين
والمسؤولين عن البلاد . ولم يتردد بعضهم في اتهام «ابن بطوطة» بأنه كان
أحياناً «يصطنع» الرحلات ، ويتقمص شخصيات أخرى ، فينسب له ما
كان لتلك الشخصيات . . . كل هذا إلى إهماله لذكر بعض المشاهد
والمزارات التي كان من المفروض أن تكون مقصودةً من لدنّه ، مثل إغفاله
لذكر مزاره الشيخ «عبد القادر الجيلانى» في بغداد !

وقد كان في صدر ما أثار انتباهنا حقاً تلك الطّفرات والقفزات التي
سجلت على الرجل في بعض المناطق التي كنا نصحبه فيها مرحلةً مرحلة .
كنا نشعر في بعض الأحيان وكأنه ركب طائرةً ليحلّق فيها من محطة إلى أخرى
بعيداً عن الأنظار ، وكم بذلنا من جهدٍ حتى نتعرف على خطوط سيره !!

لقد انشغل عن تعداد المراحل عندما انتقل من بغداد إلى تبريز عاصمة

الإيلخان ، ولعل مصاحبته للسلطان «أبى سعيد» كانت وراء اختفاء شخصيته ، فانشغل بغيره عن نفسه ، وكثيراً ما يحدث هذا ، وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِير ! وكذا كان حاله فيما بين ماردین وبغداد

ومن الوثبات المحيرة التي لم نعرف لها طريقاً ، الوثبة التي كانت له من جنوب روسيا إلى شمال تركيا . هل وصل صحبة الخاتون عبر الصحراء أو عبر الدانوب ؟ لقد اختفت شخصيته رفقة الأميرة أيضاً . ومن ميلاس غرباً جنوب الأناضول إلى قونية شرقى شمالها ، ثم من أرز الروم شرقاً إلى بركى غرباً ، لم نستطع تقفى آثاره ، وفى شرق إفريقيا أيضاً ، لم نستطع مصاحبته وهو يتحرك من كلوة إلى ظفار بحرًا .

وفى طريق «ابن بطوطة» من مكة بصحبة الأمير «البهلولان» عن طريق المدينة حتى يصل للعراق عن طريق حصن فيد - وهو الحائل - انشغل أيضاً عن تناول القلم والورق على نحو ما كان منه وهو يرافق ركب السلطان «أبى سعيد» من بغداد إلى تبريز ، وركب الخاتون إلى القسطنطينية العظمى .

وهو فى الأردن سلك طريقه من الجيزة إلى بصرى الشام ، وهو طريق غير مسلوک اليوم . ولو أنه سافر على الطريق المألوف لكان عليه أن يجتاز على عمّان قصبة البلقاء ، عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية حالياً على ما يؤكدّه الزميل الأستاذ الدكتور «ناصر الدين الأسد» فى بحثه المقدم إلى مجمع اللغة العربية بالقاهرة فى دورة ١٩٩٦ م .

وقد لاحظ زميلنا الراحل السفير «خليل الله خليل» وهو يتحدث عن «ابن بطوطة» فى أفغانستان ، طفرة الرحالة من بلخ إلى أن وصل إلى هرات ، وتساءل : أى طريق سلكه ؟ هذا علاوة على وثبة بسطام إلى قندوز وبغلان .

وعندما عبر نهر السند مع «علاء الملك» إلى العاصمة لأهري ، من الحدود الشمالية الحالية وفي اتجاه جنوب البلاد ، هناك لم يستوعب المحطات النهرية التي كان يمر بها وهو في شرق الصين ابتداء من مضيق فرموزة وعبر النهر الأعظم والنهر الأصفر وآب حياة . . . كان كسولاً في تتبع محطات سَيرِه ، ولكأنها كانت الصين صحراء قفراء ، لا ذكر لبعض الأطعمة الصينية وأشربتها ، وفي صدرها الشاى الذى كان انتشر على ذلك العهد ! لكن الوثبات الكبرى هي التي سجلت عليه ، وقد قرر أن يعود إلى بلاده المغرب عندما أنهى زيارته للصين ورجع من حيث أتى دون تدقيق ولا تفصيل . فمن مدينة الزيتون - حيث عشرات الجنوك - عبر الجاوة ، ثم طوالسى ، وشمطره حيث حضر أعراس الأمير ولد الملك «الظاهر» في الجاوة ، ثم إلى ظفار ، وفارس ، والعراق ، ثم الحج السادس والأخير قبل أن يعود إلى المغرب . . . كان يمر سريعاً ، وكأن وراءه ما يمنعه عن الاسترسال في الحديث .

وقد لاحظ «جب» - ومعه «هربك» - أن أمير شيراز لا يمكن أن يكون في عام (٧٢٧ هـ = ١٣٢٧ م) هو «أبا إسحاق بن محمد» الذى حكم من عام ١٣٤٣ م إلى عام ١٣٥٧ م . وهكذا نجد مرة أخرى أن الرحالة المغربى يمزج مشاهداته عند الذهاب بمشاهداته عند الإياب . . . !

وعندما يذكر «ابن بطوطة» أنه زار هرمز في عام (١٧٣١ هـ = ١٣٣١ م) ، يعقب «هربك» أيضاً بأن الرحالة المغربى إنما زار هرمز عند عودته من الهند والصين في عام ١٣٤٧ م !

وعندما وصل «ابن بطوطة» لمدينة (العلایا) أول بلاد الروم ، أمسك

«هربك» بتلايبه ، وضبط بالعدّ والحساب أنه زار ٢٩ محلة في أنطالية ،
انطلاقاً من العلايا ، حوالى فاتح ربيع الثانى (٧٣٣ هـ = ديسمبر ١٣٣٢ م)
... وقد حاول العالم التشيكي أن يقوم بإعادة تمثيل خط السير ، فاصطدم
بمصاعب وتناقضات ... !!

وعندما تحدث «ابن بطوطة» عن استشهاد الأمير «عمر بك» ابن سلطان
يزمير، عقّب «جب» على ذلك بأن الأمير قام بغزوته الأولى في الدردنيل في
عام (٧٣٢ هـ = ١٣٣٢ م) ، وقد لقي حتفه في شهر مايو (١٣٤٨ م = محرم
٧٤٩ هـ) . وهكذا فإن «ابن بطوطة» لم يمكنه أن يعلم باستشهاده إلاّ عند
العودة من سفره ...

وقد بيّن «هربك» أن «ابن بطوطة» — وهو في سوريا — ذكر أنه زار أكثر
من عشرين موقعاً خلال شعبان ورمضان (سنة ٧٢٦ هـ = يولية وأغسطس
١٣٢٦ م) ... وهذا غير مقبول ، ولا معقول ! وهو الأمر الذى يؤكد أن
الرحالة المغربى كان يخلط بين زيارته للأماكن في المرة الأولى والثانية .

وقد حاول بعض الباحثين أن يُشكّك في أمر وصول «ابن بطوطة» إلى
(اسطنبول) ، لكن معظم الذين اشتغلوا بالرحلة لا يرتابون إطلاقاً في وصول
الرحالة المغربى للقسطنطينية العظمى .

وعلى نحو ذلك ؛ شكك بعضهم — من أمثال الدبلوماسى الشهير
«كابرييل فيران» — في زيارة «ابن بطوطة» للصين ، إلا أن كثيراً ممّن عاجلوا
هذا الموضوع كانوا مقتنعين بأن الرجل زار فعلاً تلك الديار ، وأن الصينيين
أنفسهم لا يشكون في ذلك .

وفي خلال المحاضرة التي ألقيتها بقسم الدراسات الشرقية في جامعة بكين ، صيف عام ١٩٨٨ م ، كنت أشعر بأننى أمام عددٍ من المثقفين الذين كانوا يدينون للرحالة المغربى بالكثير من المعلومات الأصيلة التى انفرد بها عَمَّا سواه ممن تحدثوا عن تاريخ الصين وأسطول الصين ، بمن فى أولئك «ماركو بُولو» ! وقد وضعوا خرائط لزيارته لبلادهم ، وهم يرددون اسمه على أنه رائد من رواد الصّين الكبار .

وتبقى هناك - مع هذا - بعض المؤاخذات التى تستوقفنا حقًا :

الأولى : قضية حضور «ابن بطوطة» لمجلس «تقيّ الدين بن تيمية» وهو بدمشق ، بعد أن كان وصلها فى يوم الخميس التاسع من رمضان سنة ٧٢٦هـ ، (٩ من أغسطس ١٣٢٦م) ، فقد أخبر أولاً عن سجن «ابن تيمية» وإطلاق سراحه ، ثم أخبر أنه وقع منه مثلٌ ما استوجب سجنه أولاً ، فسُجن مرةً ثانية . وقال : إنه حضر يوم الجمعة وشاهد «ابن تيمية» يعظ الناس على منبر الجامع ويُذكّرهم ، وإنَّ من جملة كلامه : أن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولى هذا ، ونزل درجة من درج المنبر ، فعارضه فقيه مالكى يعرف بـ «ابن الزهراء» . . . إلى آخر الحكاية . هذا مع العلم بأن «ابن تيمية» أودع فى السجن منذ سادس شعبان ، أى قبل وصول الرحالة إلى دمشق !!

فكيف يصحّ قول «ابن بطوطة» هذا مع تلك الفقرة التى نسبها لشيخ الإسلام فى تفسيره لحديث النزول بها هو من قول المجسّمة المخالف لمذهب السلف ، الذى يُعد «ابن تيمية» قطبًا من أقطابهم ؟

ونعتقد أن أحسن ما يمكن الجواب به عن هذا الانتقاد ؛ ما عَقَّبَ به

زميلنا الراحل الأستاذ «عبد الله كنون» - رحمه الله - من أن الخبر وقع فيه تزويد من خصوم «ابن تيمية» فرواه رحالتنا على علاقته . . . ولم يُخفِ الأستاذ «كنون» شكوكه في صنيع النَّاسِخ «ابن جُزَيّ» ، الذى يجوز أنه توهم حضور «ابن بطوطة» للواقعة المزعومة .

وقد وقفتُ فى كتاب (نيل الديباج) لـ «أحمد بابا السودانى» (ت ١٠٣٢هـ = ١٦٢٣م) عند ترجمة «أبى زيد عبد الرحمن» وترجمة أخيه «أبى موسى عيسى» ، ابنى الإمام «البرشكى» ، أنهما رحلا إلى المشرق وناظرا «تقى الدين بن تيمية» الذى كانت له مقالات يحمل فيها حديث النزول على ظاهره ، وقوله فيه : « كنزولى هذا » ، قال صاحب الديباج : وهذه الزيادة - أعنى قول « كنزولى هذا » - أثبتها «ابن بطوطة» فى رحلته .

الثانية : هى تلك التى أثارت الكثير من التعاليق : وهو سفره إلى مدينة (بلغار) التى سمع بها وهو بحضرة السلطان «محمد أوزبك خان» ، حتى يرى ما ذكر له عنها من تناهى قِصر الليل بها وقصر النهار أيضا فى الفصل المعاكس ، وأنه طلب إلى السلطان مساعدته للوصول إليها ، وكان بينها وبين محلة السُّلطان مسيرة عشرة أيام .

إن المسافة بين الموقعين ألف وثلثائة كيلومتر ، فكيف يصل إليها المرء فى عشرة أيام ؟ ولم يشفع لـ «ابن بطوطة» ما نعرفه عن الإمكانيات المادية للسلطان ، والتى من شأنها - كما خَبَرْنَا ذلك - أن تتجاوز المعروف عند الإنسان العادى ، ولهذا أصر المعلقون على أن هذه المعلومة تحتاج إلى ما يدعمها .

أما المؤاخذات الأخرى الباقية فكانت تتصل ببعض الحكايات التى تتسم

بالمبالغات التي لا يقبلها العقل ، ونذكر على سبيل المثال حكاية «ابن بطوطة» عن الغواصين الذين يبحثون عن اللؤلؤ في الخليج فيما بين ميناء سيراف والبحرين ، فقد ذكر أن في الغواصين من يصبر الساعة والساعتين في الماء ، مع العلم أنه لا يمكن تجاوز سبعين إلى مائة ثانية !

وقد كان زميلي الراحل الشيخ «عبد الله الأنصاري القطري» يحكى لى - وهو ممن زاولوا الغوص - أن الغواصين كانوا يتنافسون في مدى التحمل ، وقد نبّهنى إلى أن قصد «ابن بطوطة» ليس هو الغوص تحت الماء طول تلك المدة ، ولكن أن عملية النزول إلى عمق البحر والصعود منه تستمر تلك المدة . وهذا ما وجدته في بعض الترجمات الجديرة بالثقة ، وهو ما تؤيده شهادة السيدين : «جمعة الماجد» ، و«سيف الغرير» ، وكانا أيضا من رجال الغوص . . .

ولا بد أن نذكر هنا بأن «ابن بطوطة» هو الذى كان بين الفينة والأخرى يشعر بأن بعض ما يرويه قد لا يُقبل من لدن بعض العقول ، فيقول مثلاً - وهو يتحدث عن مزاعم الناس حول شجرة (دَرْنَتْ رَوَان) بسرنديب : «ولهم في شأنها أكاذيبٌ يحيلها العقل» . وقال عن مزاعمهم حول مفعول أوراقها : « قالوا إن من تناولها عاد له الشباب ، وهو باطل»!! وقال ، وقد سمع الناس يتناقلون حديثاً غريباً : « لم أذكره خيفة مُكْذِبٍ به » . وقد سخر بعضهم من روايته لرؤية بعض النساء بثدي واحد ، في حين طالعنا صور الأحداث اليوم بوجود إناث لهن ثلاثة أثداء!!

● **وملاحظة أخيرة :** فقد كنا نشعر بوجوده في مكانٍ ما من الأمكنة ، لكنه لسبب أو آخر يفقد قلمه ويعطل ذاكرته ، فلا يحفل بها كان ينبغي له

أن يحفل به على ما أشرنا ! وهكذا ، ففى أثناء وجوده بمصر؛ أهمل ذكر جامع «ابن طولون» الذى تحدث عنه معظم الرحالة المغاربة ، ولا سيما أنه كان للمغاربة فيه «مأوى يسكنونه ، ويخلقون فيه ، حيث تجرى النفقات عليهم فى كل شهر» على حد تعبير «ابن جبير» .

هذا إلى إهمال ذكر رواق المغاربة فى الأزهر الشريف . ورواقهم - وهذا مهم - فى القدس ، وقد تحدث عنه «علوى» فى كتابه (سفرنامه) . ولم يتحدث وهو فى « سلا » عن الجامع الأعظم ، فى الوقت الذى تحدث فيه عن حسان التى لم يصعدها ، على نحو ما فعل فى الكتبية !

و«ابن بطوطة» الذى تحدث عن الزيتون والأزهر، لم يلفت نظره جامع القرويين الذى كان كعبة لكبار العلماء ، وكذا عيون الطلاب الذين كانوا يسكنون فى المدارس التى تحف به : مدرسة الصفارين ، والعطارين ، والمصباحية ، علاوة على إهماله البيمارستان الذى يسهر على علاج الناس ، والذى كان موجودا بفاس على ذلك العهد .

و«ابن بطوطة» فى الأندلس أهمل ذكر الجامع الأعظم فى « رندة » التى كانت عاصمة الأمير «أبى مالك» ابن السلطان «أبى الحسن» .

لكن الحقيقة التى ينبغى أن نجعلها نصب أعيننا ونحن نتبع تلك التعقيبات ، هى أن تلك « التقييدات » التى جمعها «ابن بطوطة» قرابة ثلاثين سنة ، قام «ابن جُزَيّ» بتلخيصها فى أقل من ثلاثة أشهر . ومتى كانت ثلاثة أشهر كافية لتغطية تلك الأعوام ، واستيعاب ذلك العدد من الأسماء الجغرافية ، والأعلام الشخصية التى مرت بذاكرة الرحالة عبر تلك الأحقاب؟! يقوم أحدنا فى العصر الحاضر برحلة فى أمد معروف البداية

والنهاية ، ولا يذكر بعد مرور بضعة أسابيع من رحلته بعض الأسماء التى
مرت به ، فيأخذ فى الاستنجد برفاقه فى الطريق !!

واعتقد أن «ابن جُزَيّ» كان مستعجلاً أكثر مما ينبغى فى أداء مهمته ،
وربما كان مشغولاً بمشكل صحى طارئٍ عليه ، وهو الأمر الذى عرّضه
للتصرّف ، ودفع به إلى الاستغناء كليةً عن بعض «التقايد» . ولا ندرى
هل كان «ابن بطوطة» يجلس إلى جانب «ابن جُزَيّ» ليراجع هذا
«التلخيص» بعد تحريره ليعطى رأيه فيه ؟ مهما يكن ، فإن بعض التَّبَعَةِ تقع
على الظرف القصير الذى حُدد للقيام بالمهمة .

وإذا ما أضفنا إلى استعجال «ابن جُزَيّ» عنصراً ثانياً قرأناه فى أثناء
الرحلة ، وهو الحسرة الجارحة التى كانت تحزُّ فى «ابن بطوطة» وهو يتحدث
عن السَّطو الذى تعرض له فى الجزيرة الصغرى ، التى تقع بين هنور
وفَاكَنَوْر ، حيث سلبه القراصنة جميع ما عنده من جواهر ويواقيت ،
حتى الثياب والزّادات ، وبالرغم من القيمة المادية الهائلة لما افتقده فى هذه
الحادثة ، فإنه نسى كلّ تلك الثروات وكلّ تلك التحف ، ولم يبق عالقاً
بذاكرته إلا «التقييدات» التى كان يُودع فيها معلوماتٍ عن الشخصيات
التى تعرف عليها ، وعن التصانيف التى ألّفَهَا تلك الشخصيات ! ولم
ينتظر للتعبير عن حزنه على ضياع تلك المذكرات الظرفُ الزمنى الذى وقع
فيه الحادث ، ولكنه - والمذكرات أمرٌ ذو بال يشغله - استعجل بذكر ذلك
عندما كان يتحدث عن علماء بُخَارَى على ما سئرى .

وينبغى أن نضيف إلى كل هذا أيضاً مشاكل الترجمة التى لم يُفَتِّ «ابن
بطوطة» الإشارة إلى بعض أخطائها ، فقد كان يتلقى أخباراً من المترجمين

والمرشدين الذين يجدهم أمامه ليستعين بهم فيما يطلب من معلوماتٍ كان يرويها كما سمعها ، فلقد قيل له - وهو في بيزنطة - عن النبی «إلياس» ، الذى يُنطق به عندهم (Elie) ، فظنه «على» . . واستغرب هو من ذلك !!

ولكن المهم - بعد هذا وقبل هذا - أن سائر الذين تعقبوه وانتقدوا بعض مقاطعه وفقراته ، أجمعوا على إكباره وتقديره ، وعلى براعته فى طريقته لجلب القراء بما كان يختاره من بديع النكتة ودقة التعبير ، وبما كان يتخذه شعاراً له من الصراحة فى القول ، مما لا يجرؤ أحدنا اليوم - فى الغالب - على الجهر به ، فهو يواجه الأمراء بما قد لا يرضيهم ، وهو ينصف المستحقين منهم ، ولو أنه كان بعيداً عنهم ، وهو فى الأخير متحفظ فيما يرويهِ إذا لم يكن مقتنعاً به ، حيث نجده « يخرج عن العهدة بما يُشعر من الألفاظ بذلك » على حدّ تعبير «ابن جُزَيّ» ، الذى عرفه حقّ المعرفة .

لقد كانوا جميعاً يتفقون على أن «ابن بطوطة» هو الرحالة الأمين ، الذى كانت مذكراته تتميز عن غيرها بما يحسه القراء ولا يستطيعون التعبير عنه ، سواء أكانوا يعيشون فى أوروبا أو آسيا أو إفريقيا .

أهمية النقوش في الرحلة

وأحب أن أثير الانتباه هنا إلى عنصرٍ في الرحلة كافٍ وحده للتأكيد على جدّيتها وصدق أخبارها ، ويتعلق الأمر بالنقوش التي كان يقف عليها مكتوبةً على لوحةٍ خشبية أو قطعةٍ من حجر أو رخام ، فكان يسجلها ويحفظها ، وقد أمست بالنسبة إلينا اليوم بمثابة وثيقةٍ حية تؤكد ما كان يرويهِ الرجل قبل نحوٍ من سبعة قرون !

فإن المؤرخ قد يتأثر بها حواليه وبمَن حواليه ، في حين تبقى الوثيقة المعاصرة أمينةً شاخصة . ولقد لدّ لي أن أهتم بهذا الجانب من الرحلة ، وأن أقف بنفسى على مرويّاتها باعتبارها - كما قلت - دليلاً لا يقبل الطعن ، ولا سيما أن بعض تلك النقوش لا يزال شاخصاً للعيان . وهكذا فقد قرأ «ابن بطوطة» على شاهد قبر الشيخ «أبى الحسن الشاذلى» اسمه ونسبه متصلاً إلى «الحسن بن على» و«فاطمة الزهراء» ، عليهما السلام .

كما لم ينسَ - وهو في مصر - التنبيه على الحروف الهيرغليفية التي وقّف عليها في برّيا أخميم ، والتي قال عنها : إنها لم تكن - آنذاك - مقروءة . . . على نحو ما قاله وهو ببلاد السُّند .

وقد كان فيما اكتشفه من خطوطٍ ما قرأه على قَبْرِية «فاطمة بنت الحسين

ابن علي : « هذا قبر أم سلمة فاطمة بنت الحسين رضى الله عنه » . وقرأ في لوح آخر : « صنعه محمد بن أبي سهل النقاش بمصر » ، وتحت ذلك ثلاثة أبيات .

وعندما زار «ابن بطوطة» قبر النبي «هود» عليه السلام ، شرقى مدينة تريم في حضرموت ، لاحظ أن القبر مكتوب عليه : « هذا قبر هود بن عابر صلى الله عليه وسلم » ، وهو ما يعتمد الحضارمة إلى اليوم .

وفي هذا الإطار ما قرأه على قبرية « سعد بن عبادة » ، وما سجله وهو بمكة عن معالمها التاريخية ، مما يُعدُّ فيه «ابن بطوطة» حجة ، لا سيما بعد اختفاء تلك الآثار ، هذا إلى ما علق بذاكرة الرحالة مما قرأه في دمشق ، وفي عسقلان ، ومدينة البصرة ، وبغداد ، وسوريا .

ومن المهم أن نسمع «ابن بطوطة» - وهو الحريص على توثيق تلك المنقوشات - نسمعه يتحسر لضياح مذكراته على نحو ما وقع بالنسبة لمقيّدات «الهروى» أثناء احتلال الروم للأراضى المقدسة .

ويخبرنا بأنه كُتب على قبر «البخارى» : « هذا قبر محمد بن إسماعيل البخارى ، وقد صنف من الكتب كذا وكذا . . . » . وكذلك كُتبت على قبور علماء بخارى أسماؤهم وأسماء تصانيفهم : « وكنتُ قِدتُ من ذلك كثيراً - يقول «ابن بطوطة» - وضاع منى في جُملة ما ضاع لَمَّا سلبنى كفار الهند في البحر . . . » . وقد اهتم - وهو في بلاد السند والهند - بتقصي المنقوشات باعتبارها الرائد الذى لا يكذب أهله ، فأخبرنا بأنه قرأ على مقصورة الجامع فى (مُلتان) التى أمر السلطان « غياث الدين تُغلق شاه » بعملها ، قرأ : « إني قاتلت التتر تسعاً وعشرين مرةً فهزمتهم ، فحيثُ

سُميتُ بالملك الغازي» . وقد أخبرنا كذلك بأنه قرأ على محراب الجامع الأعظم في مدينة دهلي تاريخ افتتاح المدينة من أيدي الكفار في سنة (٥٨٤ هـ = ١١٨٨ م) .

وقد أمكنه أن يسجل ما نقشه « جلال الدين أحسن شاه » على صفحتي الدينار : (سلاله طه ويس ، أبو الفقراء والمساكين ، جلال الدنيا والدين ، الوائق بتأييد الرحمن ، أحسن شاه السلطان) .

ومما يجرى مجرى النقوش ؛ نذكر بعض النصوص التاريخية التي حرص على تسجيلها ، مما يُعدُّ اليوم لدى المهتمين بها حججًا يعتمد عليها ، ونشير مثلاً إلى النص التاريخي لجواب سلطان الهند على رسالة إمبراطور الصين «هيونتي Hyunti» الذي طالب بترميم معبد بوذي عتيق بقرب جبل الهيمالايا في الموقع المعروف بسمهل ، حيث نجد أن العاهل الهندي يكتب إليه قائلاً : «إن هذا المطلب لا يجوز في ملة الإسلام إسعافه ، ولا يباح بناء كنيسة بأرض المسلمين إلا لمن يعطى الجزية ، فإن رضيت بإعطائها أبحنا لك بناءه ، والسلام على من اتبع الهدى » . إلى غير هذا من الوثائق التي لم يغفلها ، بما فيها الكتابات باللسان الهندي ، على نحو ما قرأناه له وهو في مدينة تارتا الأثرية من بلاد السند .

وقد تعلقت نفسي بمتابعة هذه المعلومات في الرحلات التي قمت بها عبر الأنحاء التي زارها ، وقد ذهبتُ بعيداً إلى جزر المالديف في المحيط الهندي لأعرف جليّة الأمر حول ما نقله «ابن بطوطة» في رحلته عمّا كان قرأه هناك على مقصورة الجامع - منقوشاً في الخشب - من أن سلطان هذه الجزائر أسلم على يد «أبي البركات البربري المغربي» .

فعلاً طلبتُ أن أقف على اللوحة المذكورة ، فوجدت أنها نُقلت من مكانها الأصلي وُعُوِّضَتْ بقطعةٍ حديثةٍ حاولتُ أن تنقل ما كان في اللوحة الأصلية ؛ لكنها حَرَفَتْ كلمة «أبي البركات» إلى «أبي الرّكاب» ! وكلمة «البربري» إلى «التبريزي» ! ومن حسن الحظ أن اللوحة الأصلية يحتفظ بها المتحف الوطني اليوم ، ويمكن أن نقرأ فيها هذه العبارات بوضوح : ووصل في هذا البلد أبو البركات . . . البربري وأسلم السلطان على يده في شهر ربيع الآخر سنة ثمانٍ وأربعين وخمسمائة (يولية ١١٥٣ م) .

والحديث عن علاقة المغرب مع المالديف بالأمس يسوقنا إلى التذكير بانعكاس تلك العلاقات على حاضرتنا اليوم ، حيث شاهدنا لقاءً فريداً من نوعه تُسبِّبه شهادة «ابن بطّوطة» .

خريطة العالم الإسلامي في الرحلة

تتجاوز الرحلة محتواها كمجرد مذكرات إلى أنها تُعدُّ مصدرًا مهمًّا من مصادر التاريخ الدولي ، ليس للمملكة المغربية وحدها ، بل إنها مرجع أساسٌ للتاريخ الدولي للعالم الإسلامي ، وعلاقات هذا العالم بعضه ببعض ، وعلاقاته مع العالم المسيحي ، بحيث إن رحلة «ابن بطوطة» تُعدُّ من هذه الناحية تاريخًا لما أهمله التاريخ . وهكذا ، فمن خلال الرحلة استمعنا لـ «ابن بطوطة» وهو يستعرض أمامنا أقطاب الدول الكبرى التي كانت تهيمن في عهده على معظم أطراف الدنيا ، وكان عددهم سبعة : سلطان المغرب ، وسلطان مصر والشام ، وسلطان العراق ، وسلطان الترك ، وسلطان تركستان وما وراء النهر ، وسلطان الهند ، وسلطان الصين . ولقد وجدنا أن هناك بعض الثغرات المهمة من لدن بعض المؤرخين التقليديين فيما يتصل ببلاد المغرب يملؤها الرحالة «ابن بطوطة» ، مثل حديثه عن مصادفته لسفارة من تونس في قصور بني عبد الواد ، وهي السفارة التي رافقها عند عودتها لتونس . . .

وفي (تونس) نقرأ حديثه عن ظهور العاهل الحفصي «أبي يحيى أبي بكر» في عيد الفطر سنة ٧٢٥ هـ (سبتمبر ١٣٢٥ م) ، وليس بعد هذا التاريخ كما يحكيه «ابن خلدون» !

ومن هنا كان من المتعذر كتابة تاريخ هذه المغارب دون العودة إلى رحلة «ابن بطوطة» ، سواء عندما كان ذاهبًا للحج ، حيث كان هناك ثلاثة مغارب ، أو عندما كان عائدًا ، حيث كان هناك مغرب واحد ، تحت قيادة واحدة .

وعندما يتحدث التاريخ عن العلاقات الأولى للمغرب مع الأتراك ؛ لابد أننا سنُفاجأ بمعلومة طريفة ، تتحدث عن استقبال الرحالة المغربي من لدن الأميرة «ييلون خاتون» زوجة السلطان «اختيار الدين أورخان بك بن السلطان عثمان الأول» ، الذى أصبحت تتسبب إليه الإمبراطورية العثمانية التى عرفها العالم فيما بعد .

وعلى صعيد علاقات المغرب بالشرق ؛ أذكر أيضًا الأصدقاء التى تركتها معركة مرج الصفر ، التى وقعت فى ثانى رمضان سنة ٧٠٢ هـ (١٢ من أبريل ١٣٠٣ م) بين التترو وبين المماليك ، بين الملك الإيلخانى «قازان» وبين الملك «الناصر» . ومن خلال هذه الأحداث شاهدنا علاقات دولة المماليك بالمغرب عندما بعثوا للعاهل المغربى بعددٍ من الهدايا الرمزية من الأكداش التى كان يستعملها التتر . . . ووجدنا أن المغرب ، بالمقابل ، يبعث للمشرق هدايا مماثلة : أجراس ضخمة انتزعها من كنائس الروم ، كردّ فعلٍ لإتلاف هؤلاء لعدد من المنابر الإسلامية .

هذا أيضًا إلى العلاقات التى ربطت مصر بإفريقيا السوداء ، وخاصة بعد حجة إمبراطور مالى «موسى» ، ومقدم «سراج الدين بن الكويك» على العاهل الإفريقى .

وإذا تحدث التاريخ عن التشريفات المتبعة فى القصور؛ فلا بد أن يرجع

إلى الرحالة المغربي وهو يؤدي وصفًا دقيقًا لأمر المراسم بالهند عندما يتنقل السلاطين ، وعند استقبالهم للأعياد ، وتنظيمهم للاستقبالات والحفلات ، واستعمالهم للسُرير الأعظم ، والمُبخرة العظمى .

ومن خلال رحلة «ابن بطوطة» عرفنا عن ممالك أخرى كانت بالنسبة إلينا وراء الظل ، مثلاً عن أنطاليا (بلاد الأناضول) وما احتوت عليه من إمارات توزعت الحكم هنا وهناك : إمارات وممالك في الأناضول كان «ابن بطوطة» يخترق حدودها بدون تأشيرة . ومن خلال الرحلة عرفنا عن الدولة الأرتقية في ماردين شمال العراق وجنوب تركيا ، وقد استمرت طوال ثلاثة قرون . ولقد عرفنا ، عن طريق الرحلة ، عن علاقة جمهورية جنوة بآسيا الصغرى بجنوبى روسيا ، وعلاقات هذه المنطقة بممالك مصر .

ومن خلال الرحلة سمعنا عن بطل من أبطال التاريخ الإسلامى : « عمر بك » ، الذى استمات فى الدفاع عن وطنه ، وحاول جاهداً أن يفتح القسطنطينية قبل الموعد الذى نعرفه لِفَتْحِهَا ، حيث التجأت الروم إلى البابا الذى عهد إلى جنوة وفرنسا بمساعدة القسطنطينية .

كثيرة هى المعلومات التى قدمها إلينا هذا الرَّحَّالة مما لم يكن معروفاً حتى لدى أبناء البلاد المعنية بالأمر . لقد حمل تلك المعلومات معه إلى بلاد المغرب بعيداً عن الرقابة ، حيث تُقدم اليوم لأصحابها حتى يضيفوها إلى ما عندهم .

وقد أصبح اليوم حديثه عن الحدود بين حكومة وأخرى ، وعن الإجراءات التى كان يقوم بها لدى الجهات المعنية حتى يؤذن له بالزيارة ، أصبح ذلك حجةً تتردد أصدائها اليوم فى المحافل الدولية على أنها تعنى حقائق تاريخية

ينبغي الاستئناس بها ، إن لم يكن التمسك بها في التعاليق عند الاقتضاء .

وقد كشف «ابن بطوطة» عن دور الزواج السياسى فى إحكام العلاقات بين أمة وأخرى . ولقد عاش هو هذا التاريخ ، فرأى كيف أن سلطان (قَفْجَق) يتزوّج بإحدى بنات إمبراطور القسطنطينية ، ورأى أن ملك مصر يتزوج ابنة سلطان خوارزم . . . إلى آخر النظائر التى ذكرها .

و«ابن بطوطة» هو الذى لفت نظرنا إلى مناهضة العنصرية من لدن بعض الحكام الهنود المستيرين ، من الذين حَرَّمُوا فى إقليمهم استعمال كلمة (الأجنبى) ، أو حتى كلمة (الغريب) ، وهم يستعملون عِوَضَ هذين النعتين كلمة (العزیز) - مفردة (الأعزة) - لكل طارئٍ قصدهم . ولهم (أى هؤلاء الأعزة) مكانهم المتميّز فى الحفلات الرسمية ، وقد كان من اللقطات الهامة فى تاريخ العلاقات الدولية ، وخاصة فيما يتصل بشيراز والتتر ، تلك التى استأثرت بذكرها الرحالة المغربى عندما تحدث عن وصول سفير عن سلطان العراق «أبى سعيد بهادور» إلى هذه المدينة ، وكان السفير بالمصادفة هو الأمير «ناصر الدين الدرقندى» ، وكان خراسانى الأصل ، وقد قدم فى حاشية تتألف من نحو خمسمائة فارس من خُدّامه وأصحابه ، هذا إلى السفير «رجب البُرْقعى» ، وأصله من القِرَم ، راح سفيراً من الهند إلى «الخليفة» فى مصر ، حيث استُقبل بمحضر الملك «الصالح إسماعيل» .

وعن طريق «ابن بطوطة» علمنا عن وجود سفارة مصرية برئاسة «صدر الدين سليمان المالکى» الذى وجهه الملك «الناصر» إلى سلطان العراق فى إطار العلاقات بين المالک و بين الإيلخان .

هذا إلى سفاراتٍ أخرى قرأنا عنها فى الرحلة ، كان من أبرزها الحركة

الدبلوماسية الواسعة النطاق التى شَهِدَتْهَا بلاد فارس عندما قام «محمد خُدا بنده» بتوجيه بعثات إلى مختلف الجهات لحملها على الموافقة على جعل المذهب الشيعى هو المذهب الأساسى للدولة ، هذا إلى سفارة الشيخ «زاده الخراسانى» السفير عن ملك هراة إلى الملك «أبى إسحاق» فى شیراز .

ولقد كان عدد السفراء الذين تبادلتهم دَوْلَتَا المغول والممالك كثيرًا ، وكان لـ «ابن بطوطة» فضل الإشارة إليهم ، كما كان له فضل الإشارة للعلاقات بين الدولة الرسولية فى اليمن وبين الممالك فى مصر من خلال دور المدرسة المظفرية بمكة المكرمة .

وعن طريق «ابن بطوطة» قرأنا عن وفادةٍ من الخان الأعظم إمبراطور الصين إلى سرنديب للحصول على قطعةٍ من الصخرة التى رسم عليها قدم آدم ! . . . ونذكر - بالمناسبة - أن حكومة سرنديب أطلقت على أحد الموانئ فى «سريلانكا» اسم «ابن بطوطة» .

وعن طريقه عرفنا عن صلة ملك الصين ببلاد طَوَالِيسَى . . هذه المملكة الواسعة التى يمكن أن تندرج تحتها أمم عظيمة تعرف اليوم بالفلبين ، واليابان ، وما جاورهما ! على نحو ما تندرج تحت اسم (مُلُ جاوة) شعوبٌ وأمم تعرف اليوم تحت اسم : تايلاند ، وميانمار ، وفيتنام ، وماليزيا ، وما جاورها .

وإن معلومات «ابن بطوطة» عن سلطنة مُثْرَة (MADURA) وعلاقاتها بالإمارات الأخرى تظل معلوماتٍ دقيقةً ، أيدتها النقود المكتشفة ، هذا إلى حديثه عن معارضة أهل سُذْكَاوَان للهند !

وعن طريق «ابن بطوطة» عرفنا عن أخبار الجماعات اليهودية التى كانت

منتشرة هنا وهناك . وهكذا ، فكما كانت الرحلة مصدراً مهماً للعقيدة الإسلامية ، كانت أيضاً مرجعاً لأهل الديانات الأخرى التي كانت تتعايش فيما بينها طوال التاريخ . وعن طريقه تعرفنا على عدد من قواعد العالم الإسلامي على ذلك العهد ، من أمثال دولة لورستان الكبرى ، وإمبراطورية القفجق ، وسلطانها «محمد أوزبك خان» .

وقد قدّم إلينا «ابن بطوطة» في ثانيا الرحلة معلوماتٍ تنفعنا على صعيد التعامل الدولى ، فقد ذكّرنا بتطبيق الحكومة - فى قالقوط - للقاعدة الفقهية التى تقضى بإرجاع إرث الأجانب الهلكى إلى أهلهم وورثتهم أينما كانوا . أقول : إنَّ تطبيق ذلك هو الذى كان يساعد المستثمرين على اختيار قالقوط مركزاً تجارياً لهم !

كما أفدنا فائدة تاريخية لم نقرأ عنها فى التآليف التاريخية الأخرى ، مثل (جامع التواريخ) لـ «رشيد الدين» ، عن مأساة اجتياح بغداد من لدُن المغول . . . لقد قال إن عدد الذين قضوا فى تلك الفتنة من العلماء فقط أربعة وعشرون ألف عالم !

وكلُّنا يعرف من عشيرة آل مُهَنَّا العربية بديار الشام وما قامت به من أدوار، وما كان لها من صدى ، سواء على صعيد العلاقات العربية العربية أو العلاقات العربية البيزنطية ، «مُهَنَّا الأول» المتوفى حوالى سنة (٦٦٠ هـ = ١٢٦٢ م) ، و«مُهَنَّا بن عيسى» (الثانى) المتوفى سنة (٧٣٥ هـ = ١٣٣٥ م) ، والملقب بسلطان العرب ، هذا الذى أرسل ابنه «موسى» إلى ملك التتر فى العراق مع «قراسنقر» وجماعته قبل أن يلتحق هو بالمنطقة التترية . تواريخ مثيرة لهذه العشيرة التى كانت معلومات «ابن بطوطة» عنها محلّ تزكية من لدُن الذين كتبوا عن عشائر الشام وصحّحوا ما قاله «ابن

بطوطة» عن آل «حيار بن مهنا بن عيسى» ، قبل أن تنكسر شوكتهم بموت «محمد بن حيار» .

وقد قدم لنا «ابن بطوطة» معلوماتٍ جدَّ قيِّمة عن أشراف الحجاز على عهده ، بمن فيهم الحسنيون أصحاب مكة ، وبما عرف عنهم من احتكاكات بدولة المماليك . وهكذا قرأنا عن «رُمَيْثَة بن أبي نُمَي بن أبي سعد بن علي بن قتادة» .

كما عرفنا عن الحسينيين أصحاب المدينة بما عرف عنهم من تنافس ساخن ، وهكذا سمعنا عن «كُبَيْش بن منصور بن جَمَّاز بن شيحة بن هاشم» .

ومن الطريف أن نعرف عن شريف حُسَيْنِي ، حفيد لـ «جَمَّاز» يحمل اسم «قاسم» ، يلتحق بغرناطة ، ويشارك في معركة ، ويستشهد على مقربة من الجزيرة الخضراء .

و«ابن بطوطة» هو الذي ساعدنا على معرفة الظروف التي جعلته يتوجس خيفةً من حركة القراصنة وهو في طريقه إلى المغرب عبر جزيرة سرديانية ، فقد كانت الاتفاقية المغربية مع ممالك جنوب أوروبا أتت على نهايتها ، فلا غرو إذن أن يحتاط الرَّحالة لنفسه .

هذا ، وقد أجمعت المصادر الإيطالية - وهي تتحدث عن «جِنُوة» - أجمعت على النقل عن «ابن بطوطة» عندما تحدث عن افتداء السلطان «أبي عنان» لمدينة طرابلس بتلك المبالغ السخية من العملة الذهبية حتى لا تبقى طرابلس بيد الجنووين ! لقد تحدث «ابن فضل الله العُمَرِي» في السَّفر السابع والعشرين عن احتلالها من لدن جنوة ، ولكنه ترك المدينة

أسيرة . ولم يكن هناك غير «ابن بطوطة» الذى تحدث عن تحريرها من لدُن السلطان «أبى عنان» ، وهى المبادرة التى سجلتها الرحلة ، وأكدتها تهانى غرناطة لفاس . ثم أتت المصادر الإيطالية وغيرها لتعتمد تلك المعلومات .

وقد أفادنا «ابن بطوطة» عن اهتمام المشرق بأخبار المغرب ، وأنه - أى المشرق - ما انفك يتتبع الأخبار الواردة عليه من بلاد المغرب ، وخاصة منها ما يتصل بحركات الجهاد فى الأندلس ، ومن هنا علم «ابن بطوطة» لما وصل إلى بغداد ، فى شوال من عام ثمانية وأربعين ، علم من بعض المغاربة الذين كانوا هناك بأخبار كارثة وقعة طريف ، واستيلاء الروم على الجزيرة الخضراء ، على نحو ما كان وصلنا بالمغرب عن سقوط بغداد كما يذكره «ابن عبد الملك المراكشى» .

وقد عاش «ابن بطوطة» مرحلةً دقيقةً جدًّا من تاريخ المغرب الكبير ، أدّى عنها عباراته ما سمحت به ظروفه ، وبحكمةٍ ودبلوماسيةٍ فائقة ، عندما تحدث عن مروره بتونس فسلم على السلطان «أبى الحسن» ، واجتمع بمجلس علمه ورجال مشورته ، ثم لم يلبث أن أصبح ببلاط «أبى عنان» المناهض لوالده ، ومع كل ذلك فإنه لم يسمح لنفسه أن يتدخل فيما لا يعنيه ، ويتحدث بما لا يُرضى عما يجرى بين الوالد وولده ، بالرغم من أنه صُحب فى مدينة «مراكش» ركب «أبى عنان» الذى عادَ بها يحمل شلْو^(١) أبيه إلى مقبرة «شالة» بالرباط .

و«ابن بطوطة» هو الذى أحاطنا علمًا بما كان يضمه بلاط عهد

(١) الشلْو : العضو ، وجمعها : أشلاء ، وهى من الإنسان وغيره : أعضاؤه بَعْدَ التفرُّق والبلى ، والمراد به هنا الرفات .

السلطان «أبى عنان» من وفود ترد من خارج المغرب ، مثل ابن أمير الموصل وديار بكر «الشريف علاء الدين» ، الذى كان - فى أثناء تحرير رحلة «ابن بطوطة» - بعاصمة فاس : «مستقر الغرباء ، ومأوى الخائفين» على حد تغيير الرحلة .

و«ابن بطوطة» ، ولو أنه لم يصرح بذلك - حفظاً للأسرار على ما جرت عليه الأعراف بين الدول - هو الذى وجهه السلطان «أبو عنان» ، على ما يبدو، فى مهمة إلى غرناطة ، فى ظروف كانت فيه العلاقات بين «أبى عنان» وبين والده على ما لا يرضى . وبهذا نفس المرض الدبلوماسى لملك غرناطة ، وبهذه المناسبة عرفنا «رندة» التى كانت عاصمةً للقسم الأندلسى التابع لدولة بنى مرين . و«ابن بطوطة» هو الذى راح مبعوثاً أيضاً فى مهمة للسلطان «أبى عنان» إلى بلاد السودان على ما يظهر ، حيث تم اتصاله المباشر بعدد من أقطاب وأمراء المنطقة ، وحيث قضى وقتاً هناك قبل أن يصل إليه بريد خاص من العاهل المغربى يطلب إليه أن يعود فوراً إلى حاضرة فاس .

ولا ننسى أن «ابن بطوطة» هو الذى ذكرنا - وهو يعيش فى مالديف - بأنه ترك فى المغرب عدداً من الأسرى الروم . وكان الوقت يصادف فعلاً سلسلة من الاحتكاكات التى تجرى بين المغرب وقشتالة ، وقد أعطانا الرحالة المغربى وصفاً للطريقة التى كانت الحكومة المغربية تستعملها لضبط الأسرى ومنعهم من الفرار إلى أن يتم افتدائهم بمن يوجد من المغاربة فى قبضة الطرف الآخر .

وقد حدث أن بعض الدول التى كان «ابن بطوطة» يتحدث عنها اختفت من مسرح السياسة ، وأتى بعدها قوم آخرون ، فأحرقوا كتب الأولين ودمروا

آثارهم ، فلم يُعرف عنهم شيء إلا ما قرأناه من خلال معلومات «ابن بطوطة» التي «فلتت» للخارج ، فاحتفظت بحياتها وبجدتها ، وبالخريطة السياسية للعالم الإسلامي .

نعم ، كثيرةٌ هي اللقطات التي تفيد المهتمين بالتاريخ الدولي للعالم الإسلامي ، وهي إن دَلَّتْ على شيء فإنها تدل على أن الرَّحَّالة لم يكن مجرد سائحٍ يمشى في مناكب الأرض ، ولكنه كان يهدف إلى تعريف فريقٍ بفريق وكأننى به يكتب تقريراً لملوك المغرب عمَّا رآه وما شاهده عبر أطراف الدنيا ليأخذوا منه ما يرونه صالحاً لمسيرتهم إذا كانوا يريدون .

ومن حُسن حظنا أن «ابن بطوطة» كان يعمل بنصيحة القاضي «أبى بكر ابن العربى» ، سفير المغرب لدى العراق ، الذى قال فى تأليفه (كتاب الرحلة) عندما دخل إلى بغداد وتعرّف على الخليفة بها : « نَعِمَتِ المعرفةُ التعرّف بالسلطان ، والتشرف به عند التغرّب من الأوطان ، ونِعَمَ العون على العلم الرياسة بالأمن والاستيطان » .

فبفضل العمل بتلك النصيحة أمكننا التعرف على الكثير من القادة المتنفذين آنَ ذاك .

موقع الرحلة في أدب الرحلات

يلاحظ في المؤلفات العربية على العموم - وخاصةً منها ما يتصل بالأدب العربي - غياب الحديث عن الذين يكتبون تلك التأليف: عن شخصيتهم، وعن أفكارهم وأحاسيسهم . . بحيث إنك تقرأ الكتاب من أَلْفِهِ إلى يائه دون أن تجد أثرًا يعرفك بمحرّر الكتاب ، أو بعصر تأليفه ، أو حتى بظروف تأليفه وما يجرى من حواليه .

وقد استثنى من كل هذه المؤلفات جميعًا كتابُ « الرحلة » ، أية رحلة ، الذى يمتاز كما هو معلوم بمعرفة المزيد من المعلومات عن المؤلف وهو يتحدث عن مراحل تنقلاته وعن مشاعره ، مِمَّا يرتضيه ومِمَّا لا يرتضيه ، هذا إلى تعرفنا على الجهات التى يمرّ بها جغرافيًا وبشريًا وفكريًا ، فنشعر بنوع من التجديد فى الفائدة ، بنوع من تمكن الكاتب من التعبير عمّا يريد أن يؤديه بأسلوبه الذى يتغلب به على كلّ الصّعاب ، والذى يجعله مهيمنا على إبلاغ الناس ما يريد إبلاغه من وصفٍ للطبيعة ، وتقديمٍ للظواهر التى تحف بمحيطه ، والبيئة التى يعيشها .

وهكذا فإن الكتاب الذين حرروا مذكراتهم التى نطلق عليها اليوم اسم (الرحلات) ؛ يمثلون فى واقع الأمر جانبًا إبداعيًا فى أدبنا العربى ، ومن هنا

نحسّ تلقائيًا بميل نفوسنا إلى هذا النوع من الكتابة المحببة ، لأن ذلك يعبر عما يروج في فكر الكاتب بدون تصنع أو انفعال ، ولأنه يجعلنا نرافقه في رحلته ، ونشعر بمثل الشعور الذي كان يعيشه ، سواء كان ذلك الكاتب فقيهاً أو شاعراً أو مؤرخاً أو عالم اجتماع .

لقد عُرف المغاربة من قديم بأنهم مُتفقون في أدب الرحلة ومُوفّقون كذلك ، يدل على هذا ما تركوه من بصماتٍ لهم في مختلف كتب التراث العربى .

وترجع أسباب اهتمام المغاربة بالرحلة والكتابة عن تحركاتهم - وخاصة في العهد الإسلامى - إلى الحج في المقام الأول ، وذلك لأن الإسلام يجعل من الحج ركناً بارزاً من أركانه ، فالمسلم - وهو يفكر في الثواب التى تجعل منه مسلماً مثاليًا - تنتصب أمام مخيلته الكعبة المشرفة ، سواء أكان في شرقها أو غربها ، خمس مرات في اليوم على الأقل ، يتجه إليها في صلاته وفي توسلاته . . .

وهكذا يكون العامل الأول هو تحقيق الأمل في زيارة تلك البقاع التى تشدنا إليها شدةً . . . ومن هنا ندرك السرّ في توجه المغربى نحو الشرق ، نحو مهد الحضارة ومهبط الوحي ، ومن ثمّ كان بعض من يقصد البلاد الحجازية من الفقهاء والعلماء والأدباء لأداء الحج يشعر بأن عليه ديناً يجب أن يؤديه لإخوته من الذين لم تسمح لهم ظروفهم بالالتحاق بتلك الديار ، والذين كانوا يقتنعون بوصف تلك المعالم وما تحتضنه من عوالم .

وهذا الدّين يتجلّى في تحرير التعريف بتلك البقاع ، وبمن تضمّم تلك البقاع من رجال ، أحياء وأموات ، طبعاً مع وصف المراحل التى مرّ بها

الحاج من مدينته التي انتقل منها إلى حيث يجتمع بإخوته من سائر جهات العالم الإسلامي ، مُخْرِماً مُلَبَّياً ، إلى أن يقف على جبل عرفات ، وذلك «التعريف» هو الذي نسميه بالرحلة ، التي يتحدث فيها الرحالة عن محطات المُتَبَّعة ، سواء كانت برّاً أو كانت بحراً ، مُضِيفاً إلى هذا حديثه - كما قلنا - عما يعترضه في طريقه من مشاهدات ، ومُعرِّفاً بالآثار التي خلفها الأسلاف ، ومعطياً نبذة عن المواقع الجغرافية التي يسلكها بما تحتوى عليه من نعوت وأوصاف . وهكذا ازدهرت ، نتيجةً لهذا ، حركة انتساخ المخطوطات ، وخاصةً منها كتب الرحلة لدى الحجاج يستصحبونها معهم للاستئناس بها ، وللقيام أحياناً بالمقارنات والمفارقات .

ويلاحظ أن تاريخ المغرب - وخاصةً في القرن الخامس والسادس والسابع والثامن - عرف نوعاً من تطور مثل هذه الرحلات الحجازية بفضل تشجيع الناس بمن فيهم القادة والحُكَّام لتوفير هذا النوع من المعرفة للمواطنين . ولم يقلل من شأن الرحلة الحجازية إلا ما ظهر من ميل لتفضيل الجهاد على الحج في أعقاب استيلاء الروم على البحر ، وعدوانهم على ديار الإسلام ، والعدوان المتوالى على المسلمين في الأندلس ، وذلك اعتماداً على فتوى لـ «ابن رشد» ردّد صداها «النَّاصري» في كتابه (الاستقصا) ، وهي تعطي الأسبقية للجهاد على الحج .

وهكذا تكونت لدينا لائحة لهؤلاء الأعلام الذين قصدوا الديار المقدسة لأداء مناسك الحج ، فيهم الكثير ممن لم تصلنا آثارهم إلى اليوم ، لكن فيهم طائفة مِمَّنْ اشتهر ذكرهم بما خلفوه من أعمال جليلة خلدت أسماءهم .

ونذكر من هؤلاء الرحالة «أبا الحسن محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي»

(٥٧٨هـ)، الذى سار بالرحلة خطوات واسعة ، كما نذكر «ابن رُشيد الفهرى السبتي» (٦٨٣ هـ) ، صاحب كتاب (ملء العيّبة) ، و«العبدري الحيحي» (٦٨٨ هـ) ، صاحب الرحلة المغربية . كما نذكر رحلة «أبى القاسم التجيبي» (٦٩٥ هـ)، صاحب (مستفاد الرحلة والاغتراب) ، و«ابن بطوطة» (٧٢٥هـ) موضوع الحديث ، و«خالد بن عيسى البلوى» (٧٣٦ هـ) صاحب (تاج المفرق) ، و«ابن الحاج النميرى» (٧٧٤هـ) صاحب (فيض العُباب) الذى سجلت له رحلة أيضًا إلى الحجاز فى مجلدة ، و«محمد بن سعيد الرعينى» (٧٧٨ هـ) صاحب الرحلة الحجازية المنظومة .

وعلاوةً على السبب المتلخص فى أداء فريضة الحج ، هناك الرحلة الدراسية : أى الرحلة من أجل طلب العلم ولقاء المشايخ الكبار ، حيث نجد أن المكتبة العربية تزخر كذلك بمن أَلَّفوا عمن أخذوا عنهم فى رحلتهم الدراسية من الشيوخ ، وعما حصلوا عليه من إجازات تأذن لهم فى تلقين ما حصلوا عليه للآخرين .

ونذكر إلى جانب هذا الرحلات العلمية ، وهى غير الرحلات الدراسية . ويمكن أن نصنّف فى هذا الباب بعض الرحلات التى كانت تقصد إلى حمل كتاب علمى من جهة إلى جهة بقصد تعميم الفائدة منه ، وأذكر هنا على سبيل المثال الرحلة التى قام بها «هشام بن هذيل» مُكَلِّفًا من قِبَل الخليفة الأندلسى «عبد الرحمن الناصر» ، من أجل طلب المساعدة على ترجمة مخطوطة «ديوسقوريدس» المكتوبة باللغة اليونانية ، والتى كان الإمبراطور البيزنطى أهداها إلى الخليفة «الناصر» فى عام (٣٣٧ هـ) فى حفل مشهودٍ

تحدثت عنه المصادر التاريخية والمؤلفات الطبية . وقد استجاب الإمبراطور البيزنطى لرسالة الخليفة «الناصر» ، فبعث إليه بالراهب «نيقولا» الذى وصل إلى قرطبة فى عام أربعين وثلاثمائة .

ومن أسباب الرحلة كذلك : المهّمات السياسية التى يروح فيها علية القوم من علماء وأدباء ، بما كان قد يصحبهم من مرافقين ومساعدين .

وقد حفظ التاريخ لنا أسماء عددٍ من السُّفراء الذين كانوا يُدَوَّنُونَ رحلاتهم فى كرارىس يرفعونها فى أغلب الأحيان إلى الملوك ، ونتيجةً لذلك زخرت المكتبة المغربية أكثر من غيرها بعدد من الرحلات السُّفارية التى أثَّرت الأدب المغربى ، علاوةً على ما قدمته من معلومات جدّ قيمة عن البلاد التى زارها أولئك السفراء ، وعن الأحوال الدولية على ذلك العهد ، وعن التطورات التى تمرّ بها الأمم .

وهكذا ظلت أخبار سفارة «يحيى بن حَكَم الغَزَال» (ت ٢٥٠ هـ) التى راحت إلى بيزنطة ردًّا على سفارة «ثيوفيلوس Theophilus» إلى الأندلس فى أعقاب فتح عمّورية ، وقد لخص أخبارها «ابن دحية السبتي» (ت ٦٣٣ هـ) فى كتابه (المطرب من أشعار المغرب) . . . أقول : ظلت حديث المجالس الأدبية والسياسية بما تضمنته من طريف نكتةٍ وجميل ظرف ، وبخاصة فيما يتعلق بحديث السفير الأندلسى إلى «ثيودُورا» زوجة إمبراطور القسطنطينية .

وتُعَدُّ رحلة «يحيى الغَزَال» أقدم من الرحلات التى قام بها أيام الدولة العباسية «أحمد بن فضلان» إلى بلاد الخَزَر والروس ، و«أبو دُلف» إلى إيران والهند والصين فى النصف الأول من القرن الرابع ، و«ناصر خسرو علوى» إلى الديار الحجازية بين عامي (٤٣٧ و ٤٤٤) .

وبين أيدينا خرومٌ من رحلة القاضي «أبي بكر بن العربي الإشبيلي» بصحبة أبيه «عبد الله» في عام (٤٨٩ هـ = ١٠٩٧ م) إلى مدينة السلام ، وقد بقيت هذه الرحلة حديث المجالس كذلك بما تضمنته من « مكتوب الخليفة المنقول في أيدي الناس » على حدّ تعبير « ابن خلدون » .

وإلى جانب الرحلات الحجازية والدراسية والعلمية والسّفارية ، نعيش مع نوع آخر من أنواع الرحلة ، وهى تلك الرحلات السياحية ، التى تكون غايةً واضعها في سفره مجرد السياحة ، والوقوف على الآفاق ، وعجائب المخلوقات ، والتعرف على أخلاق الشعوب وعوائدها . . وهذا النوع أيضًا مما تزخر به المكتبة المغربية . ونذكر في صدر ما وصلنا من هذا الصّنف - في النّصف الثانى من القرن السادس الهجرى - كتاب (تحفة الألباب) من تأليف «أبى حامد الأندلسى الغرناطى» ، الذى يقول في مقدمتها : « ومنذ اغتربتُ عن المغرب الأقصى عام ٥٥٧ ؛ شاهدت من الأئمة الكرام ما لا يُعدّ ولا يُخصّى ، وأولانى الله عز وجلّ على أيديهم من أنواع النعم ما لا يقدر على إحصائها إنسان » .

و«أبو حامد» هذا هو الذى أشاد بمعاملة أهل الصين للتجار المسلمين ، وتمنى أن يقتدى ملوك المسلمين بمثل هذا السلوك . . . ! والطريفُ أن «أبا حامد» وصل بهذا إلى فهم ذكى للحديث النبوى الذى يقول : « الدُّنيا سِجْنُ المؤمن » ، فلقد أدرك أنَّ معنى ذلك أن دنيا المسلم خالية في بعض الأحيان من العدل والإحسان .

وهناك نوع من الرّحلات يمكن أن يطلق عليه اسم الرحلات الاستكشافية ، وهى غير الرحلة التى تكون أصلاً لغرض السياحة ، وهى التى يقوم بها أصحابها من أجل اكتشاف بلادٍ جديدةٍ والاطلاع على أحوالها .

ويمكن أن ندرج في هذا النوع من الرحلات ما قام به أحد عمالقة الأدب الجغرافي في تاريخ الإسلام ، ويتعلق الأمر بـ «الشريف الإدريسي السبتي» ، الذي قَدَّمَ إلينا (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) . . هذا الكتاب الذي يُعتبر مَعْلَمَةً من المعالم التي يعتزُّ بها العالم الإسلامي على الصعيد الدولي ، فهو — أى «الإدريسي» — ولو أنه لا يتعرض كثيرًا للوقائع التي حدثت له في أثناء أسفاره ، ولا يتعرض غالبًا لشيء من أحواله الشخصية ، لكنَّ تأليفه ذو صلة قوية بموضوع الرحلات ، باعتباره يخطط المراحل للجوالين والمسافرين ، وباعتباره مصدرًا اعتمد على الرحلات السابقة لغيره .

ونذكر إلى جانب هذا ، الرحلات الزَّيَّارِيَّة ، أى التي يقوم بها بعض بقصد زيارة أضرحة الأنبياء والصحابة والأولياء ورجال الصَّلاح . ولا شك أن هذا النوع من الرحلات يُعَدُّ من أهم المصادر عن تاريخ الحياة الدينية والحركة الصوفية . وهذا يفيدنا في نفس الوقت من حيث الفن المعماري الخاص ببناء المساجد والمزارات والمشاهد .

ومن مَنَّا ينكر فائدة كتاب (الإشارات إلى معرفة الزيارات) لـ «أبي الحسن على بن أبي بكر الهروي» ، وهو كتاب لا تستغنى عنه مكتبة ؟! . .

وقد أثار انتباهنا ونحن نقرأ عن تاريخ انتشار الإسلام في بلاد آسيا وفي تخوم إفريقيا؛ الحديث عن نوع من الرحلة كان له الأثر الأكبر في دخول الإسلام في تلك المناطق النائية ، لا عن طريق السيف ولا عن طريق الإكراه ، ولكن عن طريق إعطاء المَثَل الحسن ونشر الفضيلة وتقديم القدوة الطيبة . وكان الذين قاموا بمثل هذا العمل المتشد الرصين والحكيم هم الذين كانوا يقومون بالرحلات التجارية إلى تلك الأصقاع ، وكل الذين أشادوا في الماضي والحاضر بظهور الإسلام هناك كانوا يقفون مشدوهين أمام

الأثر الحميد الذى خلفته الرحلة التجارية فى نفوس أولئك الذين أقبلوا على الإسلام بكل ما يملكونه من حب .

وقد ذهب بعض المهتمين بأمر الرحلة إلى أبعد من هذا فى استيعاب أنواع الرحلة ، فتحدثوا عن الرحلة البرّية والبحرية ، والخارجية والداخلية ، والاختيارية والقسرية ، والفردية والجماعية ، والرحلة الخيالية والرحلة التى تتخذ شكل المراسلات ، أو تهدف إلى إبرام المعاهدات .

لكننا سنقف هنا لنترك الفرصة للحديث عن نوع أكثر شمولاً وأوفر فضاءً من كل تلك الأنواع التى تقدمت للرحلة ذاك ما نعطيه اسم «الرحلة العامة» . . . ونقصد بها الرحلات التى جمعت الكثير من كل تلك الأغراض ، ونذكر على الخصوص رحلة «ابن بطوطة» ، فقد غادر بلده طنجة فى بداية الأمر فى عام ٧٢٥ هـ بقصد الحج ، لكن بسبب تعذر الحج فى تلك السنة - لما صادفه من اضطرابات بين البُجاة والماليك على ساحل البحر الأحمر - اضطر للانتظار سنة كاملة لحضور موسم الحج فى عام ٧٢٦ هـ . وهنا فى أثناء هذا الفراغ ؛ نمت فيه الرغبة للقيام بحضور مجالس الدراسة ، وفى التزوج مرةً أخرى ! وفى القيام كذلك بزيارات سياحية على جانب كبير من الأهمية ، وفى القيام برحلات داخل الرحلة . ولم يلبث أن عبر الدنيا ، وارتاد الأماكن البعيدة .

وبعد أن قمنا بجولة سريعة فى المحطات التى مرّ بها ؛ وَجَدْنَا أن «ابن بطوطة» كانت تتمثل فيه وتنطبق عليه صفات كل أولئك الرحالة ، فهو حاج ، وهو دارس ، وهو سفير ، وهو سائح ، وهو مكتشف ، وهو زائر ، وهو داعية ، وهو تاجر أيضًا . . . وهو مُبَشِّر بالمعنى الحقيقى للمبشر .



الفهرس

الموضوع	الصفحة
● هذه السلسلة	٧
● مقدمة	٩
● حياة «ابن بطوطة»	١٣
● دور السلطان أبى عنان ووزيره ابن ودرار فى ظهور الرحلة	٢٩
● بين ماركو بولو وابن بطوطة	٣٥
● اهتمام المستشرقين بالرحلة	٣٧
● اهتمام العرب بالرحلة	٥٥
● اهتمام الدراسات النقدية بالرحلة	٦٥
● أهمية النقوش فى الرحلة	٧٧
● خريطة العالم الإسلامى فى الرحلة	٨١
● موقع الرحلة فى أدب الرحلات	٩١

عربية للطباعة والنشر

7 & 10 شارع السلام أرض اللواء المهندسين

تليفون : 3256098 - 3251043

(مشافيير الكتاب العرب) (للناشئة والشباب)

ابن بطوطة



لا يفتنى احتفاء الدار المصرية اللبنانية بالعظماء من كتاب الأمة العربية مجرد
استرجاع الحديث عنهم ، فذلك دور رواة السير الشعبية ، ليتلهم بها البسطاء في ساعات
الفراغ ، بل أننا نتوخى في هذه السير مشوار العظمة نفسه ، وكيف كان .. بمعنى أننا نقدم
هذه الشعلة المقدسة في يقين صاحبها ، وتتبع الجهود المظنية التي بذلها ، وتكرس بذلك أمام
الأجيال قيمة العمل الإنساني الجاد ، وكيف تكون نتيجته ، فأحياناً لا يرى الناس
دون الوقوف عند الأسباب التي سبقتها . وإنما نتوخى أيضاً من سيرة الكاتب إلهاماً
بكاملتها من تاريخنا الثقافي ، بتفاعلاتها الاجتماعية والفكرية والسياسية .. لتأمل
والتحليل المبسط ، والأسلوب السهل الممتنع ، وتلك غاية أخرى تمكن الأجيال من
على مسار حركة الفكر وتطوره في أممنا العربية وخاصة أننا نأشد ما نكون في حاجة
في خضم التحديات الفكرية والسياسية والاجتماعية التي يتحتم علينا مواجهتها

Bibliotheca Alexandrina



0500501

الدار المصرية اللبنانية